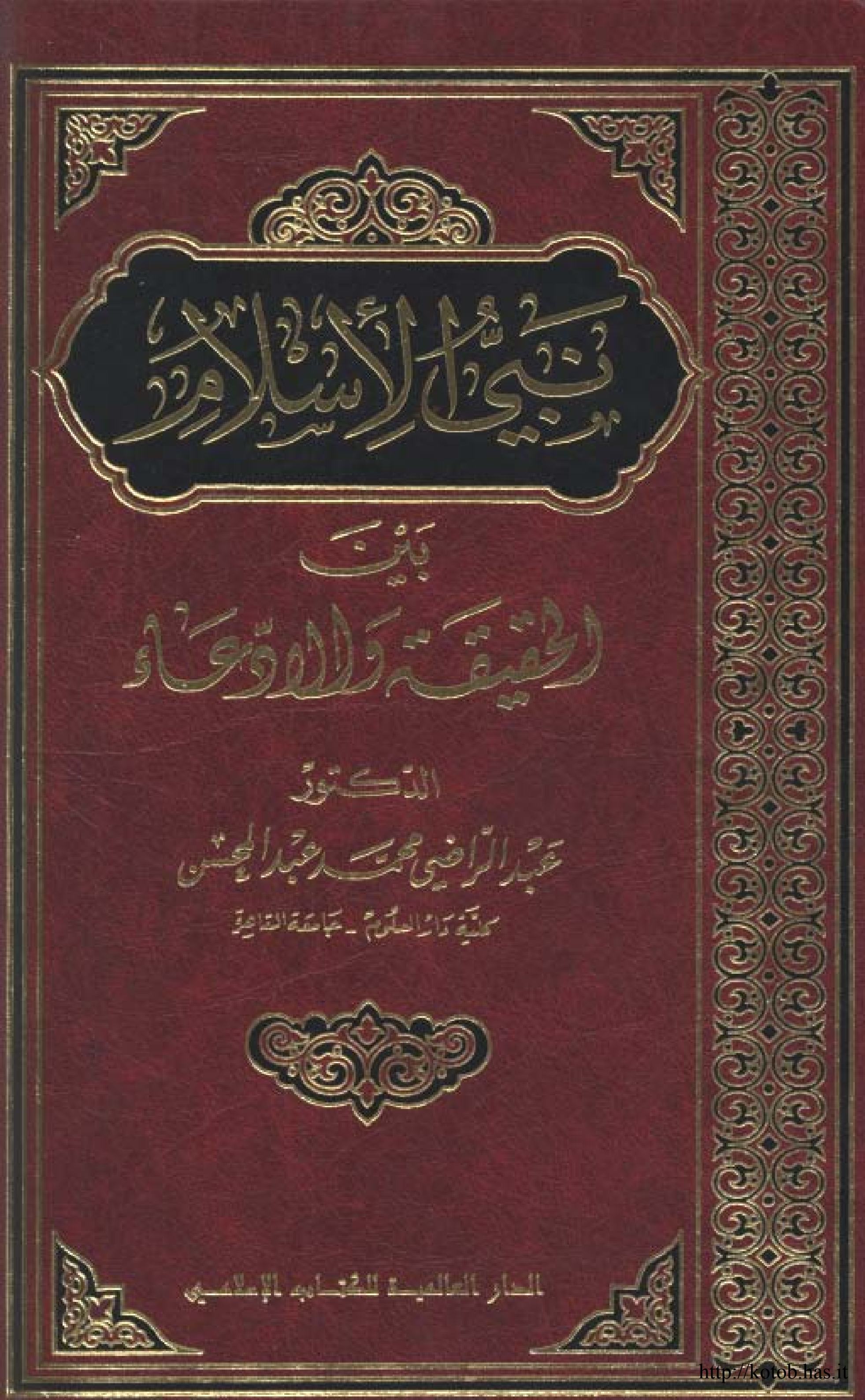
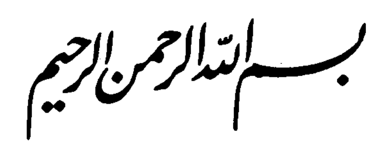

نبي الإسلام
بين
الحقيقة والادعاء
الدكتور
عبد الراضي محمد عبد المحسن
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
الدار العالمية للكتاب الإسلامي



الدكتور
عبد الراضي محمد عبد المحسن
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



الدار العالمية للكتاب الإسلامي



الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

ISBN 9960 - 672 - 58 - 1



الدار العالمية للكتاب الإسلامي

نشر وتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي بسبعين لغة

الإدارة العامة: ص.ب. ٥٥١٩٥ ـ الرياض ١١٥٣٤

هاتف ٤٦٥٠٨١٨ ـ ٤٦٤٧٢١٣ ـ فاكس ٤٦٣٣٤٨٩

المكتبات: الرياض ٤٦٢٩٣٤٧ ـ ١/ جدة ٦٨٧٣٧٥٢ ـ ٢/ الخبر ٨٩٤٥٨٢١ ـ ٣

الإهداء

إلى الذين . . .

يـريـدون ليطفئـوا نـور الله بـأفـواهـهـم

ويـــأبـى الله إلا أن يـتـم نــــوره

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى بعث النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، بعثه للعالمينَ بشيراً ونذيراً ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأنبياؤهم به بشرت ، وكتبهم عنه أخبرت، وآيات النبوة عليه دلّت .

أما بعد ،

فقد بات محمد ﷺ هدفاً لمطاعن خصوم الإسلام التقليديين وجنودهم من جحافل المبشرين والمستشرقين الذين راحوا يثيرون الغبار والشبهات ، ويروجون المزاعم حول نبى الإسلام ورسالته ، مبتغين تشويه صورة نبى الإسلام فى أعين من لايعرفه ؛ للتنفير من التفكير فى الإسلام ودراسته فى محاولات يائسة لقطع الطريق أمام الإسلام فى أداء رسالته التنويرية، وتعطيل دوره الحيوى فى هداية البشرية .

وقد تصدت أقلام كثيرة للدفاع عن نبى الإسلام فهو شرف تبذل المهج والأفئدة لنيله ، ناهيك عن كلمات فى صحف مطوية ، لكن هذه الجهود المشكورة جاءت إما عرضا فى سياقات مختلفة كالرد على أهل الاستشراق أو دعاة التبشير، وإما فى معرض الحديث عن دلائل النبوة فى الإسلام ، كما

أنها فى الأعم الأغلب كتابات عامة من غير المتخصصين على الرغم من أن طبيعة الموضوع تستلزم الإلمام بجوانب متعددة كالفلسفة الإسلامية ، وتـاريخ الأديان ، والفكر الغربى ، مما جعل من هذه الدراسة واجباً تفرضه الحاجـة الماسة إلى طرح الإسلام كبديل حضارى ، ومخرج نهائيٍّ ووحيـد جديـر بقناعة إنسان المدنية المعاصرة .

ولاشك أن محاولة الإقدام على طرح الإسلام قبل البدء بتثبيت دعائم نبوة رسوله فى مواجهة المتشككين والمنكرين ، لهو ضربٌ من الحرث فـى الماء ، وقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى هذا المنهج فـى قولـه تعـالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ، فقد ربـط بين بيان الحق وتثبيت أركانه ، بل قدم الاستدلال على البيـان وقـد اتبعنـا المنهج القرآنى ، فسلكنا طريقاً ذا ثلاث شعب يجمع بين الرد على الدعـاوى والشبهات المثارة حول نبوة محمد ﷺ ، وبين بيان حقيقة نبوتـه ، وبيـن تثبيت دعائم هذه النبوة بالدلائل اليقينية من النقل والعقـل ومعطيـات العلـم الحديث .

وقد استغرق إعداد هذه الدراسة قرابة عشر سنوات ، على مرحلتين تكمل كل منهما الأخرى ، وذلك إدراكا منا لدقة الموضوع وأهميته وضرورة الاحتشاد الكافى له .

وتأتى هذه الدراسة فى إطار الجهود الساعية إلـى تصحيـح المفـاهيم الخاطئة حول الإسلام والتى أثمرت مجموعة من الردود القوية أنجزها عـدد من كبار مفكرينا ونشرت نشرة خاصة بعنوان: " نبـى الإسـلام بيـن الحقيقـة والادعاء" وإن كان كتابنا بمثابة الأصل الذى تبنى عليه مثل تلك الردود فالعلم

بصدق محمد ﷺ وإثبات صحة نبوته يسبق بالضرورة البحث فى مضمون رسالته

وجاءت الدراسة فى محاور ثلاثة تضمنتها ثلاثة فصول :

أولها : يهدف إلى الكشف عن (طبيعة النبوة) فى الإسلام ، وذلك بتحديد مفهومها فى اللغة والاصطلاح ، ذلك المفهوم الذى يجمع بين نظرية الاتصال والمعرفة المترتبة على هذا الاتصال ، وبين جانب ثالث هو الهبة التى تمثل الطريق الوحيد للنبوة فى الإسلام .

ثم يعرض لتقسيم (مراتب النبيين) ، ذلك التقسيم الذى يصنفهم تفاضليا فى ترتيب تصاعدى يبدأ بالأنبياء ، ثم يتلوهم الرسل ، فيعلوهم أولو العزم من الرسل ويقف على قمة السلم خاتم الأنبياء وصفوة المرسلين محمد ﷺ .

ثم يشرح مبدأ (عصمة الأنبياء) ذلك الكمال الخُلقىّ المتضمّن العصمة من الوقوع فى الذنوب والمعاصى ، وكذلك العصمة فى التبليغ وهى حفظ الله لأنبيائه ورسله من الخطأ والنسيان والضلال ، كى يتمكنوا من أداء رسالاتهم على الوجه الأكمل ، ذلك المبدأ الذى ينفرد به الإسلام عن أية دعوة أخرى .

وينتهى بإثبات (ختم النبوة) بمحمد ﷺ ، وبيان توافقها مع مقتضيات العقل ، والشرع ، والإجماع ،والكشف عن أن دعوى محمد ﷺ ختم الأنبياء به هى الدعوى الوحيدة فى تاريخ الدين ، والتى تصدر من فم صاحبها ويدونها كتابه دون لبس أو غموض ، وأنها جنبت الإسلام مشكلة الأنبياء الكذبة التى عانت منها الديانات الأخرى .

والثانى : يقوم بتحديد وجمع الدعاوى والمزاعم المثارة حول نبوة محمد ﷺ وأصالة دعوته ، وهى الدعاوى الست المشهورة ، والتى أعقبنا كلا منها بوجوه بطلانها :

فالدعوى الأولى : عدم انقطاع شريعة موسى وعيسى ، ينقضها انتظارهم لنبى قادم يلزمهم اتباعه وطاعته فى شرعه .

والدعوى الثانية : ليست هناك حاجة إليه ، يبطلها أن رسالة محمد ﷺ تضمنت ما جاءت به الرسل من قبل ، وأضافت إليه ما كان ينقصها .

والدعوى الثالثة : لم تبشر به النبوات ، تواجه بما فى كتبهم من بشائر محددة بأوصاف النبى ، وخصائص أمته ، ورسالته .

والدعوى الرابعة : لم يؤيد بالمعجزات ، ينفيها معجزاته الباهرة التى وقعت على يديه وشاهدتها الجموع الغفيرة من أصحابه .

والدعوى الخامسة : لم يرسل إلا إلى العرب ، يعارضها تصريحه ﷺ بإرساله إلى الإنس والجن جميعا ، ويؤيد ذلك مجموعة من الدلائل على عالمية الإسلام .

والدعوى السادسة : الإسلام هرطقة مسيحية ، تخطّئها الأصالة الذاتية للإسلام والتى تجعل محمدا ﷺ مؤسساً لدين حقيقى .

والثالث : تثبيت دلائل نبوة محمد ﷺ ، بالأدلة العلمية اليقينية والبراهين والآيات البينات الواضحات ، فإثبات نبوة محمد ﷺ من خلال هذه الدلائل والبراهين هو أفضل طريق فى تأكيد

بطلان المزاعم وتهافتها ، فالنتيجة المؤكدة لذلك المنهج هي العلم القطعيّ بصدق محمد ﷺ وأصالة رسالته .

ويستلزم ذلك بيان إفادة دلائل النبوة اليقين بأقسامها الأربعة :

أولا : القرآن الكريم ، بدلالته على نبوة محمد ﷺ من حيث الجملة والتفصيل ، وبما تضمنه من جوانب الإعجاز العلمي المختلفة .

ثانيا : المعجزات ، وهي تدل على النبوة وأقسامها ثلاثة :

معجزات العلم ، ومعجزات القدرة ، ومعجزات الاستغناء

ثالثا : البشارات ، ولها قيمة كبرى في الرد على المزاعم والشبهات ، لأن أهل الكتاب مقرون بإلهامية الأسفار الواردة فيها البشارات .

رابعا : سيرة النبي ﷺ وأخلاقه ، وهي تبرز جوانب صدقه وشهرته بذلك بين أعدائه وأصدقائه على السواء ، مما أيدته شهادات المؤرخين المعاصرين .

وختاماً نسأل الله أن يكون هو القصد من وراء هذا البحث ، وأن نكون قد وفقنا فيما ابتغيناه من الذود عن نبينا ﷺ ، فقد صحَّ منّا العزم ولكن السداد بيده سبحانه .

وهو الهادي للتي هي أقوم ،،،

د. عبد الراضي محمد عبد المحسن

الرياض في

رمضان المعظم ١٤١٨هجري/ يناير ١٩٩٨م

الفصل الأول

النُّبُـــوّة فى الإسلام

الواقع أن النبوة الإسلامية جاءت مصححة

متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة

عباس محمود العقاد

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه /ص ٦١

الإيمان بالنبوة – فى الإسلام – أصل من أصول الإيمان ، لقـــوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنـا وإليك المصير) البقرة ٢٨٥

وفى الصحيحين أن جبريل قد أتى على هيئة أعرابى يسأل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام ، فأجاب النبـــى ﷺ : (الإيمـــان ؛ أن تؤمـــن بـــالله، وملائكته وكتبه ، ورسله ، واليوم الأخر وتؤمـــن بـــالقدر خـــيره وشـــره) البخارى [كتاب الإيمان / باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عـــن الإيمان.] مسلم [كتاب الإيمان / باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان] .

وعلى ذلك فمن ينكر النبوة فإنما يرفض الإسلام فـــى جملتـــه ، لأن الدين الإسلامى يقوم على الوحى والنبوة وعنهما صدر وبما لهما من إعجـــاز ساد وانتشر ، وعلى تعاليمهما شُيِّدت أركانه وتأسَّست قواعده ، كما يظـــهر من قوله تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره علـــى الدين كله) الفتح / ٢٨ . لذلك فقد ضل وخسر مَنْ لم يؤمن بالنبوة والأنبياء كما قال تعالى (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر فقد ضل ضلالا بعيداً) النساء / ١٣٦ .

لأن الله تعالى أرسل الرسل وبعث الأنبياء مبشرين بنعيمه لمن أطاع الله وآمن به ، ومنذرين بعذابه لمن عصى الله وكفر به ، كما قال تعالى (إنـا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينـــا إلـــى إبراهيـــم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيـــوب ويونـــس وهـــارون وسليمان وأتينا داود زبوراً ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لـــم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكـــون

للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) النســـاء / ١٦٣ - ١٦٥

فلن يقبل الله حجة بعدُ من معتذر ، فقد أرسل الله رسله وبعث أنبيــاء ومعهم الكتاب والحكمة ومؤيَّدين بالآيات والبراهين الدالة على صدق دعواهم يقول تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحيــاة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيـــات ربــهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، ذلك جزاؤهم جهنم بمــا كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) الكهف / ١٠٣ - ١٠٤.

لذلك فقد جاءت قضية النبوة فى الإسلام واضحة جلية بسيطة ، ممــا نأى بها عن المشكلات التى واجهتها قضية النبوة فى اليهودية والمسيحية .

وسوف نعرض هذا الفصل " النبوة فى الإسلام " فى المباحث الأربعة التالية :-

١ - المبحث الأول : ماهية النبوة

٢ - المبحث الثانى : مراتب النبوة

٣ - المبحث الثالث : عصمة الأنبياء

٤ - المبحث الرابع : ختم النبوة

المبحث الأول

ماهية النبوة

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين

(الأنعام / ٤٨)

أولا النبوة فى اللغة

تدور المعانى اللغوية للفظة (النبى) فى العربية حـــول احتمـــالين يختلفان باختلاف جهة الاشتقاق ، وهما (١) :-

الأول : أن يكون معنى (النبى) المُنبئ ، فعيل بمعنى فاعل مهموز اللام وقد سمى بذلك لإنبائه عن الله تعالى وأجاز ابن برى أن يكون فعيلا بمعنى مُفْعِـل مثل نذير بمعنى منذر .

كما يصح فيه أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، فهو المنبّأ لأن الله هـــو الـــذى ينبئه وعلى هذا الوجه فإن لفظ النبى مهموز ، وهمزته إمـــا أن تكـــون قـــد سقطت، أو أُبدلت ياء ، أو تُركت ، أو لُيِّنت كمـــا فـــى الذريـــة والبريـــة ، ومعروف أن الإبدال والإدغام لغة فاشية عند العرب .

---

(١) راجع فى ذلك :
ابن منظور / لسان العرب / مادة نبأ .
الفيومى / المصباح المنير / مادة نبأ / دار المعارف ١٩٧٧م .
المعجم الوسيط / مادة نبأ
الرازى / مختار الصحاح / مادة نبأ / القاهرة ١٩٧٦ .
التهانوى / كشاف اصطلاحات الفنون / الجزء الثانى ص ١٣٥٨ .

يجمع لفظ نبى على أنبياء ، لأن الهمز لما أُبدل وألزم الإبدال جُمع جمع ما أصل لامه حرف العلة ؛ كعدو جمعه أعداء ، وولى جمعه أولياء ، ووصى جمعه أوصياء ، وقوى جمعه أقوياء .

الاحتمال الثانى : أن يكون معنى (النبى) الشريف رفيع القدر والمنزلة ، فعيل بمعنى مفعول مأخوذ من (النَّبْوَة أو النباوة) وهى الارتفاع عن الأرض .وحينئذٍ يكون معناه الذى يشرف على سائر الخلق والرفيع المنزلة عند الله ، ويجمع على أنبياء .لكن ابن تيمية يقطع فى دراسته اللغوية حول لفظ النبى بأن النبوة مشتقة من الإنباء ، وأن النبى مأخوذ من الإنباء لا من النبوة ، ويسوق على ذلك الأدلة التالية (١) :- .

١ - أن صيغة فعيل من الفعل نبَّأ قد تكون بمعنى فاعل أى مُنبئ وبمعنى مفعول أى مُنبَّأ وهذان المعنيان متلازمان للنبى ، فالنبى هو الذى ينبئ بما أنبأه الله به ، والنبى هو الذى نبَّأه الله وهو مُنبَّأ بما أنبأه الله به .

٢ - أن لفظ الإنباء يتضمن معنى الإعلام والإخبار لكنه فى عامة موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار ، فهو يستعمل فى الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة، كما قال تعالى : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) آل عمران / ٤٩ وقوله (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير) التحريم / ٣ وقوله: (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) البقرة / ٣٣ ، وقوله (عمَّ يتسألون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون) النبأ / ٢ ، وقوله : (قل هو

(١) ابن تيمية / النبوات / ص ٢٢١ - ٢٢٣

نبأ عظيم أنتم عنه معرضون)سورة ص/ ٧ وقوله: (نبئوني بعلم إن كنتم صادقين)الأنعام / ١٤٣

٣ – أن قراءة نافع كانت بالهمزة .

٤ – أن معنى العلو والرفعة داخل فى المعنى الأول ، فمن أنبأه الله وجعله مُنْبِئاً عنه فلا يكون إلا رفيع القدر عليّا ، لكن لفظ العلو والرفعة لا يدل على خصوص النبوة إذ يوصف به من ليس بنبي ، كما جاء فى قوله تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) آل عمران / ١٣٩.

٥ – أن الحديث المنسوب إلى النبى ﷺ أنه قال : " أنا نبى الله ولست بنبئ الله " ليس له إسناد لا مسنداً ولا مرسلاً ، ولم يُرو فى شئ من كتب الحديث ولا السير المعروفة .

٦ – أن اللفظين مشتركان فى الاشتقاق الأكبر ، فكلاهما فيه النون والباء، وفى هذا الهمزة وفى هذا الحرف المعتل ، لكن الهمزة أشرف وأقوى .

٧ – أن المهموز تلين همزته فتصير حرفاً معتلا ، فَيُعَبَّر عنه باللفظين بخلاف المعتل فإنه لا يجعل مهموزا ، كما فى على ووصى لا يجوز أن يقال علئ ووصئ .

٨– أن تصريف اللفظ أنبأ ونبأ ينبئ بالهمزة ولم يستعمل فيه نبا ينبو . وإنما يقال : هذا ينبو عنه والماء ينبو عن القدم إذا كان يجفو عنها ، ويقال فى فلان نبوة عنا أى مجانبة.

وكما اختصت لفظة النبى بالإنباء والإخبار عن الأمور الغائبة ، فقد اختُصَّت اللفظة بالاستعمال فى حق المرسلين ومتلقى الوحى الإلهى فقط [١] .

ثانياً : النبوة فى الاصطلاح

تنوعت تعريفات النبوة فى اصطلاح علماء الإسلام بحسب المنظور والنسق الذى عالج به كل فريق مفهوم النبوة فى الإسلام :

فتبنى المعتزلة تعريفاً اصطلاحيا يفيد الرفعة والنباوة ، لكنها ليست أى رفعة بل رفعة مخصوصة خص الله بها بعض عباده [٢] ، وذهب الأشاعرة إلى أن النبى هو المنبئ واشتقاقه من النبأ [٣] ، ولقد بالغ الجوينى فى التأكيد على ذلك فأطلق على النبوة اسم (النبوءة) [٤] .

وراعى ابن خلدون جانب الاتصال بين النبى والملأ الأعلى فرأى فى النبوة الصدق الذى لا يعتريه الكذب ، لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيّع ولا استعانة بأجنبى [٥] .

أمّا جمهور أهل السنة فقد كانوا أعمَق إدراكا لماهية النبوة بجانبيها المتمثلين فى : نظرية الاتصال ، والمعرفة الحاصلة المترتبة على هذا الاتصال بين الإنسان والملأ الأعلى .

---

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٥ / ١٤ – ١٦) .
(٢) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٥ / ١٤) .
(٣) البغدادى / أصول الدين / ص ١٥٣ .
(٤) الجوينى / الإرشاد بتحقيق محمد يوسف موسى ، على عبدالمنعم عبدالحميد / ص ٣٠٢ .
(٥) ابن خلدون / المقدمة / ص ٩٣ ، وانظر ص ٨٥ .

فبالنسبة للجانب الأول (نظرية الاتصال) يُبْرز أهل السنة دور هذا الجانب في تعريفاتهم ، فيقول ابن حزم : " النبوة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئا له أمر ما فهو نبى بلا شك " [(١)] وهنا يراعى ابن حزم البعد الرأسى فى نظرية الاتصال (من الله إلى الإنسان) .

أما ابن تيمية فيؤكد فى تعريفه النبوة على البعدين معا : الرأسى (من الله إلى الإنسان) ، والأفقى (من النبى إلى المكلفين) فيقول : " فالنبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به " [(٢)]ويقول " فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم بما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهى " [(٣)] .

وبالنسبة لجانب المعرفة الحاصلة عن طريق النبوة ، فيجعلها أهل السنة إحدى طرق العلم الثلاثة المعتبرة وهى : الحس ، والعقل ، والمركب منهما كالخبر، إذ من الأمور ما لا يمكن علمه إلا بالخبر [(٤)] . يقول ابن تيمية : " نفس النبوة تتضمن الخبر فإن النبوة مشتقة من الإنباء وهو الإخبار بالمغيَّب ، فالنبى يخبر بالمغيَّب ويخبرنا بالغيب ويمتنع أن يقوم دليل صحيح على أن كل ماأخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون الخبر ، فلا يمكن أن يُجْزم بأن كل ما أخبرت به الأنبياء يمكن غيرهم أن يعرفه بدون خبرهم ولهذا فان

---

(١) ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٥ / ١٢) .

(٢) ابن تيمية / النبوات / ص ١٧٢ .

(٣) السابق / ص ١٧٣ .

(٤) ابن تيمية / درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٧٨) .

أكمل الأمم علما المقرون بالطرق الحسية والعقلية والخبرية ، فمن كذّب بطريق منها فاته من العلوم بحسب ما كذّب به من تلك الطرق " [١] .

ويمتاز طريق المعرفة النبوية لدى أهل السنة بأنه نوع من المعرفة المتميز عن أنواع المعارف الأخرى ، فإن كان الإلهام كشفا فالنبوة استدلال ، وإن كان التوهم ظنا فالنبوة يقين ، وإذا كانت الكهانة من استراق الشياطين السمع من السماء وقد انقطعت بمجئ محمد ﷺ فالنبوة اتصال مشروع مأمون ليس فيها غير المعقول أو الحقيقى ، وإن كان التنجيم تخمينا فالنبوة علم ، وإن كانت الرؤيا احتمالية فالنبوة صدق .

يقول ابن حزم مؤكداً هذه المعانى : " ليس هذا من باب الإلهام الذى هو طبيعة كقول الله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل) النحل / ٦٨ ، ولا من باب الظن والتوهم الذى لا يقطع بحقيقته إلا مجنون ، ولا من باب الكهانة التى هى من استراق الشياطين السمع من السماء فيرمون بالشهب الثواقب وفيه يقول الله عز وجل : (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) الأنعام/١١٢، وقد انقطعت الكهانة بمجئ رسول الله ﷺ ، ولا من باب النجوم التى هى تجارب تُتعلم ، ولا من باب الرؤيا التى لا يُدرى أصدقت أم كذبت؟

بل الوحى الذى هو النبوة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحى إليه بما يعلمه به ، ويكون عند الوحى به إليه حقيقة خارجة عن الوجوه المذكورة ، يُحدث الله عز وجل لمن أوحى به إليه علما ضروريا بصحة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء لا مجال للشك فىشئ منه إما

---

(١)ابن تيمية / درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٧٩) .

بمجئ المَلَك به إليه وإما بخطاب يخاطب به فى نفسه وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم " [١] .

وقد أبرز علماء الإسلام فى تحديدهم لماهية النبوة جانبا آخر مُهمًّا ألا وهو طريق النبوة ، فاتفق جمهور المسلمين على أن النبوة هبة من الله الذى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس :

فيقول ابن خلدون : " اعلم أن الله – سبحانه – اصطفى من البشر أشخاصا فضّلهم بخطابه ، وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعّرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجزاتهم عن النار ، ويدلونهم على طريق النجاة ، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والإخبار بالكائنات المغيَّبة عن البشر التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم كما قال ﷺ : ألا وإنى لا أعلم إلا ما علَّمنى الله " [٢]

وذهب بعض المعتزلة إلى أنها جزاء على عمل [٣] ، إلا أن الجبائى يؤكد على أنها من اصطفاء الله لأنبيائه واختصاصه إياهم بالنبوة ، كما يجّوز أن تكون ابتداءً ،هذا بالإضافة إلى أن النبوة لدى المعتزلة نوع من اللطف الإلهى لما فى إرسال الرسل وبعث النبيين من صلاح للعالم والإنسان ، ذلك

(١) ابن حزم / الفصل (٥ / ١٢) .

(٢)ابن خلدون / المقدمة / ص ٨٥

(٣) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٥ / ١٦) .

اللطف الذى يدخل فى باب الوجوب العقلى على الله تعالى الذى لا يفعل إلا ماهو أصلح لعباده [١] مما لا يخرج المعتزلة من دائرة القائلين بهبة النبوة .

أما لدى الأشاعرة : " فليست النبوة معنى يعود إلى ذاتىّ من ذاتيات النبى ولا إلى عرض من أعراضه استحقها بكسبه وعمله ، ولا إلى العلم بربه ،فإن ذلك مما يثبت قبل النبوة، ولا إلى علمه بنبوته ، إذ العلم بالشئ غير الشئ (ولكنّ الله يمنُّ على من يشاء من عباده)إبراهيم/١١، فليست إلا موهبة من الله تعالى ونعمة منه على عبده وهو قوله لمن اصطفاه واجتباه إنك رسولى ونبىّ " [٢] .

والنبوة لدى جمهور أهل السنة منّة ورحمة من الله بعباده ، يقول شارح الطحاوية : " وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه وخصوصًا محمداً ﷺ ، كما قال تعالى : (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) آل عمران /١٦٤. وقال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء / ١٠٧.

وينفى أهل السنة وجوب شرط لهذه المنة الإلهية ، يقول ابن حزم : " فصح أن النبوة فى الإمكان وهى بعثة قوم قد خصهم الله تعالى بالفضيلة لا لعلة إلا أنه شاء ذلك ، فعلّمهم الله تعالى العلم بدون تعلم ولا تنقل

(١) السابق / ص ١٩ - ٢١ ، ٣٧ - ٥٠ .
(٢) الشهر ستانى / نهاية الأقدام / ص ٤٦٢ .
- الآمدى / غاية المرام فى علم الكلام ، بتحقيق الأستاذ الدكتور حسن الشافعى / ص ٢٤ .
- المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، بتحقيق حسن الشافعى / ص ١٢٢

فى مراتبه ولا طلب له " [١] وإن كانوا يقررون بأن النبى قد خُصَّ بقوى فى نفسه ، وأن الله قد خصه بقوى فى نفسه يمتاز بها عن غيره فى علمه وعمله كما قال تعالى (فبمارحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضُّوا من حولك) آل عمران / ١٥٩ ، وبوجود فضائل فى نفسه وأن من خصه الله بهذه الفضائل فقد أراد به خيراً كما قالت خديجة للنبى ﷺ لمّا جاءه الوحى وخاف على نفسه : " كلا والله لايُخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق " [٢] فاستدلت بعقلها على أن من جعل الله فيه هذه المحاسن والمكارم التى جعلها من أعظم أسباب السعادة لم تكن من سنة الله وحكمته وعدله أن يخزيه بل يكرمه ويعظمه [٣] .

على أن هذه الفضائل النفسية والأخلاقية ليست سببا للنبوة إذ لابد في النبوة من اصطفاء إلهي يختص الله به من يخصه بذلك من عباده بمشيئته وقدرته ، وهو سبحانه عالم بذلك النبى، وبما يوحيه إليه من الوحى ، وبقدرته خصه بما خصه به من كراماته [٤] .

وقد فارق إجماع جمهور المسلمين القائلين بهبة النبوة طائفة من الفلاسفة والقرامطة والباطنية والاسماعيلية وبعض غلاة الشيعة ، وهم يقولون

---

(١) ابن حزم / الفصل (١ / ٦٤) وانظر : الدرة فيما يجب اعتقاده / ص ٣٨٠ - ٣٨١ .
(٢) البخارى [كتاب بدء الوحى / الباب الثالث ، كتاب التفسير / سورة اقرأ] ، مسلم [كتاب الإيمان / باب بدء الوحى] .
(٣) ابن تيمية / الصفدية (١ / ٢٢٥) .
(٤) ابن تيمية / الصفدية (١ / ٢٣٠) .

إن النبوة مكتسبة [١] ، إذ هى عبارة عن ثلاث قوى أوخصائص من قامت به فهو نبى ، وهذه الخصائص هى [٢] :-

الخاصة الأولى: أن تكون للنبى قوة قدسية وهى قوة الحدس بحيث يحصل له من العلم بسهولة مالا يحصل لغيره إلا بكلفة شديدة ، وقد يعبرون عن ذلــــك بأنه يدرك الحد الأوسط من غير احتياج إلى ما يحتاج إليه من ليس مثلــــه ، وحاصل الأمر أنه أذكى من غيره وأن العلم أيسر عليه منه على غيره .

والخاصة الثانية : قوة التخييل أو الحس الباطن بحيث يتمثل له مايعلمه فـــى نفسه فيراه أو يسمعه ، فيرى فى نفسه صوراً نورانية هى عندهم ملائكـــة الله ويسمع فى نفسه أصواتا هى عندهم كلام الله ، من جنس ما يحصل للنائم فــى منامه ومن جنس مايحصل لبعض المصروعين ولبعض أهل الرياضة .
ويقولون إن ماأخبرت به الرسل من أمور الربوبية واليوم الأخر إنمــــا هــو تخييل وأمثال مضروبة ،لا أنه إخبار عن الحقائق على ماهى عليه

والخاصة الثالثة : أن تكون له قوة نفسانية يتصرف بها فى هيولى العـــالم ، كما أن للحسود قوة نفسانية يؤثر بها فيمن يحسده ، ويزعمون أن الخـــوارق والمعجزات من هذا النمط .وقد انتقلت نظرية النبـــوة لـــدى الفلاســـفة إلـــى

---

(١) راجع تتبع ابن تيمية لهؤلاء وآرائهم ورده عليهم الذى استغرق كتاب الصدفية كله .

(٢) الفارابى / آراء أهل المدينة الفاضلة / ص ٦٨ - ٦٩ .

ابن سينا / الإشارة والتنبيهات (٢ / ٣٦٨ - ٣٧٠ ، ٣ / ٨٥٣ - ٩٠٣) بتحقيق ســليمان دنيا وراجع فى تفصيل المسألة : الدكتور إبراهيم مدكور/فى الفلسفةالإسلامية : منهج وتطبيـق/ص ٨١ - ٩١. = محمد لطفى جمعة / فلاسفة الإسلام / ص ٤٢ - ٥٢ .

متفلسفة الصوفية كابن عربى والحلاج والسهروردى المقتول وابن قسى وابن سبعين وغيرهم ، وذلك عن طريق أبى حامد الغزالى الذى يقول عنه ابن تيمية : إن كلامه كان واسطة فى نقل مذاهب الفلاسفة إلى متفلسفة الصوفية فكان الإساس الذى بنى عليه ابن عربى فكرته عن خاتم الأولياء الذى يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى النبى [١] .

ويشرح أستاذنا الدكتور عبدالحميد مدكور أبعاد ذلك التماثل فى نظرية النبوة بين الفلاسفة والصوفية كابن عربى فيقول : " يرى ابن عربى أن ظاهرة التأثير فى الأشياء ترجع فى أصلها إلى قوى نفسية يسميها الصوفية الهمّة ويسميها بعضهم الصدق ، وهذه الهمّة توجد فى الإنسان على نوعين : همّة تكون فى أصل خلقة العبد وجبلته ، وهمة تحصل له بعد أن لم تكن ، وهذه الهمة قادرة على التصرف فى العالم فبعض الصوفية الموجودة لديهم هذه الهمة وهم طائفة العزابية يقتلون بها من يشاؤون ، فهى كهمة الحسد الذى يتقوى فيه الخيال بأن يكون الجمل فى القدر أو الطفل فى القبر .

والصوفية فى هذا قد تأثروا بالفلاسفة من أمثال الفارابى وابن سينا ، فالفارابى يذهب إلى أن الروح القدسية قد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ، وابن سينا يذهب إلى مثل ذلك عندما تحدث عن أن القوى النفسانية لا يقتصر فعلها على بدنها بل إذا شاءت أحدثت فى مادة العالم

(١) ابن تيمية / الصفدية (١ / ٢٢٩ - ٢٣١ ، ٢٤٩ ،- ٢٥٠)

ويؤيد الدكتور أبو العلا عفيفى ماذهب إليه شيخ الإسلام من تأثير الغزالى فى ابن برجان وابن قسى اللذين اتخذاه إماماً لهما ، وهما قد أثرا بدورهما فى ابن عربى .

راجع فى ذلك : الدكتور أبو العلا عفيفى / من اين استقى محيى الدين بن عربى فلسفته التصوفية / ص : ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٩ - ٢٠ .

تأثيرًا يترتب عليه أن تحدُث سحب ورياح وصواعق وزلازل وانبثاق مياه وعيون" [١].

لهذا فإن البحث الدقيق يثبت أن نظرة كل من الفلاسفة والصوفية للنبوة وإن اختلفت فى البدء فإنها تتفق فى النهاية اتفاقا يصعب معه التفرقة بين لغة الفلاسفة ولغة الصوفية ؛ ولذلك فإن العلاقة بين نظرتيهما ليست علاقة تواز ولكنها أشبه ماتكون بالمثلث الذى يلتقى فى طرفه الخطان المتباعدان [٢] .

وقد انفرع عن هذه النظرية الفلسفية فى النبوة القول بتفضيل الفيلسوف والولى على النبى، وكذلك خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء [٣]انفرع عنها أيضًا القول بعدم إغلاق باب النبوة ، فزعم السهروردى أنه لن يموت حتى يقال له: قم فأنذر [٤] ، وقال ابن سبعين : لقد زرب ابن آمنة حيث قال لا نبى بعدى [٥] .

ويرجع السبب فى ظهور مثل هذه النظرية التى تصادم جوهر وحقيقة النبوة فى الإسلام ، والتى خرج القائلون بها عن إجماع جمهور المسلمين ، إلى أثر الثقافات والعناصر الأجنبية التى راح أصحابها

---

(١) الدكتور عبدالحميد مدكور / الولاية عند محيى الدين بن عربى / ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) الدكتور عبدالفتاح الفاوى / النبوة بين الفلسفة والتصوف / ص ٤٣٩ ولا شك أن المقصود بالصوفية فى عبارته هم فلاسفة الصوفية وليس أهل التصوف السنى كالجنيد والقشيرى والكلاباذى وغيرهم .

(٣) راجع فى ذلك : الدكتور إبراهيم مدكور / فى الفلسفة الإسلامية / ص ١١٨ - ١١٩ .
= الدكتور عبدالحميد مدكور / الولاية عند محيى الدين بن عربى / ص ٣٨٣ - ٣٩٢ .

(٤) ابن تيمية / درء تعارض العقل والنقل (١ / ٣١٨) .

(٥) ابن تيمية / الصفدية (١ / ٢٨٤) .

الموتورون من الدين الجديد الذى سلبها مجدها ، راحوا ينفثون من سمومها ، فلم يدعوا أصلا من أصول الإسلام إلا وجهوا له سهام التشكيك والتضليل وأثاروا حوله الشبهات [١] .

ولم يقتصر أثر هذه الهجمة الأجنبية على زعزعة الإيمان والتسليم المطلق السائد منذ عصر الصدر الأول حول تعاليم الإسلام فى الوحى ، بل تعداه إلى بدء موجة الشك وإنكار النبوة والأنبياء ومعجزاتهم ، وقد تولى كبر هذا الإفك ملحد يهودى الأصل معتزلى الفكر هو ابن الرُاوندى ،كما نُسب أيضًا إلى أبى بكر الرازى الطبيب كتابا: "مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين " " نقض الأديان أو فى النبوات " [٢]،لكن أستاذنا الدكتور عبد اللطيف العبد يرفض اتهام الرازى الطبيب بمثل هذه الآراء ، ويُرجع هذا الاتهام إلى حملة الدعاية المضادة التى قام بها الشيعة الإسماعيلية ضد الرازى بسبب هجومه على مسألة الإمامة ، ويذكر سيادته فى دراسته الموسعة عن أبى بكر الرازىأن الكتب المنسوبة إليه لا أصل ولاوجود لها ، بل إن ابن النديم قد ذكر له كتابًا يدافع فيه عن النبوة بعنوان " فيما يراد به إظهار ما يُدَّعى من عيوب الأنبياء " ويضيف أن الرازى لم ينكر الشرع ولا الأديان حتى ينكر الأنبياء ، بل يحث على تنمية الجانب الروحى في الإنسان وتزكية الجانب الأخلاقى حتى لا يعطل الإنسان شىء عن إدراك المطالب الدينية . كما أنه يذود عن أخلاق الأنبياء وينفى كون العشق من مناقبهم [٣].

(١) الدكتور إبراهيم مدكور / فى الفلسفة الإسلامية / ص ٩٣ - ٩٤ .
(٢) السابق / ص ٩٦ - ١٠٧ .
[٣] الدكتور عبد اللطيف العبد / أصول الفكر الفلسفى عند أبى بكر الرازى / (ص ١٣٠-١٤٤)

وقد تصدى مفكرو الإسلام باختلاف طوائفهم لتلك الآراء في ردود قوية ناصعة حفظت للنبوة والوحي مكانتهما اللائقة في تعاليم الإسلام ، ونزعت عن تلك المحاولات وأمثالها بريقها الزائف وما يلتبس بها من ضلال قد يخفى على غير أولي الاختصاص . مما جعلها تزوى غير مخلّفة إلا صدى خافتا تبعته جماعة من المحدثين (١) ، والمعاصرين .ولم يجرؤ أولئك على إنكار النبوة صراحة خشية ثورة جمهور المسلمين وطوائفهم ، لكنهم عمدوا إلى إنكار المعجزات ، أو تأويلها تأويلا نفسياً (٢) .ولأن المعجزة – كما يرى الشيخ مصطفى صبري– لا تنفك عن النبوة فإنه يقطع بإنكار أولئك للنبوة (٣) ، ويعلل لذلك بأن منشأ إنكار المعجزة كونها من الأمور الغيبية وكذلك النبوة هي أيضا من الأمور الغيبية (٤) .

لكن يمكننا اقتراح أسباب أخرى قد تعلل ذلك الإنكار :

أولها:محاكاة منكري المعجزات للمستشرقين ودارسي سيرة النبي ﷺ من الغربيين الذين راعهم معجزاته ﷺ القاطعة في دلالتها على نبوته مما لم

(١) أمثال : محمد فريد وجدي ، ومحمد حسين هيكل ، وزكي مبارك .

(٢) راجع نصوص أولئك المحدثين في إنكار المعجزة لدى الشيخ مصطفى صبري في كتابه (القول الفصل) ص ٥ –١٢٩ ، وبالنسبة لنصوص الدكتور حسن حنفي في رفض المعجزة دليلاً على النبوة ، انظر قوله: " إن التصديق بالنبوة إنما يتم باتفاقها مع العقل ومع مصالح الناس وليس بالمعجزة طالما لم تؤد المعجزة إلى التصديق بالنبوة وطالما انتفت شروطها . إذ لا يكفي في صدق المعجزة سلامتها عن المعارضة ، فقد تكون عدم معارضتها ناشئة من جهل مؤقت بقوانين الطبيعة التي خُيّل للناس نقضها " من العقيدة إلى الثورة (٤ / ٦٥) وانظر ص ٧٦ ، ٧٩ حيث يصرح بأن المعجزة ليست دليلا على صدق خاتم النبيين .

(٣) مصطفى صبري / القول الفصل / ص ١٠ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٧٨ ، ١٢٧ .

(٤) السابق / ص ١١ .

يتوفر مثله لموسى أو عيسى ، فراحوا يوجهون سهام الشك والارتياب نحـــو معجزاته رغبة فى تجريده ﷺ من أبرز دلائل نبوته فى مواجهة دعواهـــم بعدم تأييده بمعجزة تثبت نبوته ، تلك الدعوى التى سنفصلها فى الفصل القادم إن شاء الله .

والثانى : الرغبة فى الشهرة والصيت وذلك بمخالفة إجماع المســلمين ومــا تعارفوا وتوافقوا عليه ، وطلب الظهور بمظهر العقلانيين وأحرار الفكر.

المبحث الثانى

مراتب النبوة

ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض

(الإسراء / ٥٥)

إن أهم مايميز النبوة فى الإسلام هو صفة الوحدة والكلّيه ، بمعنى أن التصور الإسلامى للنبوة تصور كلّى ، يقوم على أن الأنبياء والرسل يمثّلون لبنات يكمل بعضها البعض لتشيّد فى النهاية بناءً واحداً متكاملاً مَحِلاً لرسالات الله ووحيه . وذلك لأن دعوة الأنبياء واحدة . كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) الأنبياء / ٢٥. وهم مع ذلك إخوة لقوله ﷺ : " الأنبياء إخوة لعلاّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد " البخارى (كتاب الأنبياء / باب واذكر فى الكتاب مريم) مسلم [كتاب الفضائل / باب فضائل عيسى عليه السلام] ، وما الدين الذى دانو به ودعوا إليه وأرسلوا به إلا دين الإسلام ، (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران / ١٩ : فنوح يقول لقومه : (وأمرت أن أكون من المسلمين) يونس / ٧٢ ، وإبراهيم يتلقى من ربه أمراً بالإسلام : (إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين) البقرة / ١٣١ ، ويوصى يعقوب به بنيه: (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) البقرة / ١٣٢ وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون) البقرة / ١٣٣، وموسى يدعو إليه قومه : (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) يونس /٨٤ ، والحواريون يقولون لعيسى : (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) آل عمران / ٥٢ .

ذلك لأن مهمتهم واحدة ، كما قال تعالى (كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) البقرة / ٢١٣.

ومن ثمّ أوجب الإسلام الإيمان والتصديق بجميع الأنبياء والمرسلين وبما أُنزل إليهم من وحى وكتب ، وذلك على سبيل التفصيل المذكور فى قوله تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين) الأنعام / ٨٣ – ٨٦ ، وكما جاء فى قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم)آل عمران/ ٣٣وقوله (وإلى عاد أخاهم هودا) هود / ٥٠ وقوله (وإلى ثمود أخاهم صالحا)هود / ٦١، وقوله(وإلى مدين أخاهم شعيبا)هود / ٨٤ ، وقوله : (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) الأنبياء / ٨٥ ، وقوله : (محمد رسول الله) الفتح / ٢٩.

وعلى سبيل الجملة أوجب الإسلام الإيمان والتصديق بالأنبياء والمرسلين بإطلاق ، لقوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) البقرة / ٢٨٥ ، وقوله : (يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر فقد ضل ضلالا بعيدا) النساء / ١٣٦ ، وذلك لأن القرآن لم يذكر أسماء كل المرسلين كما قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا

من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك)غافر / ٧٨ ولقوله تعالى : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك) النساء / ١٦٤.

ومن هنا كان التفريق بين الأنبياء والإيمان ببعض المرسلين والكفر ببعض كفراً بهم جميعا كما قال تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا) النساء / ١٥٠ – ١٥١ ، وكان الوعد بالمثوبة والأجر الكريم لمن لم يفرق بينهم ، كما قال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما) النساء / ١٥٢ .

لكل ذلك جاء تقسيم مراتب النبوة فى الإسلام بعيداً عن أية نزعة عنصرية أو عرقية ، أو تفضيل على أساس من الجنس أو الشعوبية ، بل كان الحكم والمعيار فى تعيين مراتب النبوة فى الإسلام وترتيبها ترتيب أفضلية هو طبيعة الوحى والرسالة وصبر المرسل فى التحمّل والأداء . يقول تعالى (ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبوراً) الإسراء / ٥٥، ويقول تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)البقرة/ ٢٥٣ ، والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول والذى تشمله دعوته ونشاطه ، كأن يكون رسول قبيلة أو رسول أمة أو رسول جيل أو رسول الأمم كافة فى جميع الأجيال ، كذلك يتعلق بالمزايا التى يوهبها لشخصه أو لأمته ، كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى

شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية [1] .وقد صنف ابن تيمية مراتب النبوة فى الإسلام قائلا : " وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ،وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ . قال تعالى :(شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الشورى / ١٣وقال تعالى(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما)الأحزاب /٧ -٨ ،وأفضل أولى العزم محمد ﷺ خاتم النبيين " [2] .

وسوف نعرض لهذه المراتب فى ترتيب الأفضلية التصاعدى الذى أورده شيخ الإسلام ، وذلك على النحو التالى :-

أولا : الأنبياء

وهم فى أعلى رتب السعداء المنعم عليهم كما قال تعالى : (ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا)النساء / ٦٩ ،وهم كذلك أفضل وأكرم خلق الله ، لقوله تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كُلاّ

(١) سيد قطب / فى ظلال القرآن (١ / ٢٨٢) .
(٢) ابن تيمية / الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان / ص ٨ - ٩ .

هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌ من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضّلنا على العالمين) الأنعام / ٨٣ – ٨٦ .

وإلى جانب هذا التكريم والتفضيل على العالمين فهم صفوة الله الذين اصطفاهم بكلامه ورسالاته ، وهذا الاصطفاء مذكور على سبيل الجملة وكذلك على سبيل التفصيل ،فيقول تعالى : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) الحج / ٧٥ ، ويفصّل القرآن فى سورة " ص " بعضا من أسماء المصطفين ، فيعقب على ذكر داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب بقوله : (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) سورة ص / ٤٧ وفى سورة آل عمران (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) آل عمران / ٣٣ ، يبين الله من اصطفى من عباده واختارهم لحمل الرسالة والدين منذ بدء الخليقة ؛ ليكونوا طلائع الموكب الإيمانى فى شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون [١] .

وقد اصطنعهم الله تبارك وتعالى لنفسه كما أخبر عن موسى عليه السلام(واصطنعتك لنفسى) طه / ٤١ ، كما أنه تعالى قد صنعهم على عينه كما قال فى موسى :(وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) طه / ٣٩

والأنبياء فى الإسلام كما ذكر الإمام أحمد"أحد أصوله الأربعة وهى : دالٌ ، ودليل ، ومبيِّن ، ومستدل .فالدَّالّ هو الله ، والدليل هو القرآن ، والمبيّن هو النبى كما قال تعالى : (لتبيِّن للناس مانزّل إليهم) النحل /٤٤ ،

(١) سيد قطب / الظلال (١ / ٣٩١) .

والمستدل هم أولو العلم والألباب الذين أجمـــع المســلمون علـــى هدايتـــهم ودرايتهم"(١).وقد اضطلع الأنبياء بعدد من الوظائف الجليلة والمهام الجسيمة ، منها:

١- **الدعوة إلى التوحيد** ، وهى الوظيفة الأساسية والمهمة الكبرى التى بعث من أجلها النبيين، كما قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبــدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل / ٣٦ .

٢ - **التشريع** ، وهو من أهم وظائف الأنبياء بعد دعوتهم إلى التوحيـــد ، إذ فيه مصلحة العباد الحاصلة بتمكين شرع الله فى الأرض والعمل به كقـــانون سالمٍ عادل مُنزَّه عن أخطاء وثغرات قوانين البشر ، وقد بيّن الله تعالى وظيفة الأنبياء فى التشريع فى قوله سبحانه : (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانــــهاكم عنه فانتهوا) الحشر / ٧.

ويُستنبط هذا أيضا من إقرار مبدأ الحاكمية فى قـــــوله تعالى : (ومن لــم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة / ٤٤ ، وقوله : (ومن لــم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) المائدة / ٤٥ . فالرسول هو الموكـل إليه تقنين هذا المبدأ ووضعه حيز التنفيذ ليكون قانون الأمة الإسلامية الحـاكم على مدار الأجيال .

٣ - **القضاء** ، وذلك فيما ينشأ من نزاع وخلاف بين المؤمنين ، كمـــا فـــى قوله تعالى : (فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنــون بالله واليوم الأخر ذلك خير وأحسن تأويلا) النساء / ٥٩ . وقد رُفعت صفة الإيمان عمّن لم يُسلِّم بقضاء الأنبياءِ . يقول تعالى : (فلا وربك لا يؤمنـــون

(١) ابن تيمية / النبوات / ص ٣٩ .

حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثمَّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً ممـــا قضيــت ويسلّموا تسليما) النساء / ٦٥ .

٤ - **التعليم** ، وهو من أسمى مهام الأنبياء الذين أخذوا على عاتقهم تكميـــل القوة النظرية لأتباعهم كما سنوضح هذا عند الحديث عن عصمة الأنبيـــاء ، يقول تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون) البقرة / ١٥١ ، ويرى ابـــن حزم أن تعليم الأنبياء ليس قاصرا على الحكمة والمعرفة ، بـــل يمتـــد إلـــى العلوم والصناعات المختلفة [١] .

٥ - **الإنذار والتبشير**،وذلك بتعريف الناس بما يخفى عليهم مـــن نعيـــم الله وثوابه للمحسنين ، وعقابه وعذابه سبحانه للعصاة فى يـــوم الديـــن ، يقـــول تعـــالى : (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آيـــاتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟! قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) الأنعام / ١٣١ - ١٣٢ ، ويقـــول تعالى (وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتـــها الأنهار)البقرة / ٥ .

وفى ذلك إبطال لحجة الخلق على الله ، كما قال تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل) النساء / ١٦٥

٦ - **الهداية** ، وهى من أخص مهامهم صلوات الله عليهم أجمعين ، يقـــول تعالى:(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات)الأنبياء / ٧٣ وقد أخبر المولى أن مايهدى إليه الأنبياء لهو الصـــراط الحـــق صـــراط الله المستقيم يقول تعالى:(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) الشورى/ ٥٢ .

(١) ابن حزم / الفصل (١ / ٦٤ - ٦٥) .

٧ - **التأسّى بهم** ، فهم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر وقد أمرالله عز وجل بالاقتداء بهم والسير على نهجهم وجعلهم نماذج الكمال المحتذى ، لأنهم عنوان الفضل والفضيلة وأطهر الناس سلوكا وأشرفهم رتبة وأكملهم عقلا، يقول تعالى(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)الأنعام/ ٩٠.

ويخبر عن محمد ﷺ : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب / ٢١ .

٨ - **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** ، يقول تعالى : (الذين يتّبعون الرسول النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) الأعراف / ١٥٧.

ثانيا : الرسل

وهم أخص من الأنبياء ، فكلُّ رسول نبىٌّ وليس كلُّ نبىٍّ رسولاً [١]وإن كانت المعتزلة تنازع فى هذا ولا ترى فارقاً بين النبى والرسول [٢] .وقد رُوى فى عددهم حديث عن أبى ذَرٍّ أنه قال : (قلت يارسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيراً)، وفى رواية أبى أمامة ، قال أبوذر : (قلت يارسول الله : كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً) مسند الإمام أحمد / (٥ / ١٧٨) .

(١) ابن أبى العز الحنفى / شرح الطحاوية / ص ١٦٧ .

(٢) القاضى عبدالجبار / شرح الأصول الخمسة / ص ٥٦٧ - ٥٦٨ والحق أن ماذهبت إليه المعتزلة ينقضه قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا) مريم / ٥١ وهو يدل فى نفس الوقت على نقيض ما ذُكر من أن كل رسول نبى فلو كانت النبوة جزءاً من الرسالة ما أضاف الله إلى موسى صفة النبوة بعد أن أثبت له الرسالة .

وقد ذُكرت فروق بين النبى والرسول منها :

الفارق الأول : أن الرسول هو من نبأه الله بخبر السماء وأمره بتبليغه أما النبى فلم يؤْمر بالتبليغ (١) .

وهذا الفارق غير مقبول لأمور منها :

أولا : أن الله نصّ على أنه أرسل النوعين : الأنبياء والرسل ، كما فى قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الحج / ٥٢ .

ثانيا : أن القرآن يحكى عما أخبر به أحد أنبياء بنى إسرائيل قومه ، قائلا : (وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنت مؤمنين) البقرة / ٢٤٧ - ٢٤٨ .

ثالثا : قول الرسول ﷺ : (عُرضت علىّ الأمم فرأيت النبىَّ ومعه الرهط والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد) سنن الترمذى (كتاب القيامة / باب رقم ١٦) .

وأظن سبب التفريق بين النبوة والرسالة على هذا النحو إن هو إلا بتأثير ما ذهب إليه ابن حزم من أن كل من أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئا له بأمر ما فهو نبى (٢) .

---

(١) شرح الطحاوية / ١٦٧ .

(٢) ابن حزم / (٥ / ١٢ - ١٣) .

الفارق الثانى : أن الرسول من أُوحى إليه بشرع جديد والنبى هو المبعوث لتقرير شرع مَنْ قبله (١) .

ويعارض هذا أن آدم ليس رسولا بالرغم من تلقّيه الشرائع التى على أساس منها قدّم ابناه قابيل وهابيل قربانا فتُقُبّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر ، وما كان من قتل أحدهما الآخر وإمساك الثانى عن محاولة قتل أخيه لما فى ذلك من الإثم ومخالفة الشريعة ، كما قال تعالى : (واتلُ عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قُربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر قال : لأقتلنّك ، قال : إنما يتقبّل الله من المتقين ، لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين) المائدة / ٢٧ - ٢٩ .

كما يعارضه أيضا كون نوح أول الرسل إلى أهل الأرض كما ورد فى الحديث الشريف (٢) ، إذ لا يعقل أن يعيش عشرة قرون كانوا كلهم على الإسلام دون شريعة تنظم لهم أمور دينهم ودنياهم .

الفارق الثالث : أن الرسول هو المرسل إلى كُفَّار يدعوهم إلى التوحيد أما النبى فهو المبعوث فى قومه الموحدين (٣) .

ويعارض هذا كون عيسى ابن مريم رسولا ، بل من أولى العزم من الرسل ، مع أنه أُرسل إلى بنى إسرائيل قومه المقرين بالله ربا واحداً كما قال تعالى : (وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم

(١) تفسير الألوسى (١٧ / ١٥٧) .
(٢) البخارى [كتاب الأنبياء / باب قول الله - تعالى - إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه] .
(٣) ابن تيمية / النبوات / ص ١٧٢ - ١٧٣ .

مصدقا لما بين يدىّ من التوراة ومبشِّراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) الصف / ٦ .

ويمكن القول أن ماذهب إليه القائلون بالفارق الثانى والثالث يتناول أحد الفروق الصحيحة بين النبى والرسول وليس جميعها . أما الفارق الأول المذكور فهو لا يصح بوجه ؛ لذلك فإن التعريف الدقيق للرسول ، هو : أنه المنبَّأ بخبر السماء والمرسل بشرع جديد إما إلى قوم موحدين ، وإما إلى كفّار يدعوهم إلى التوحيد وإلى العمل بهذا الشرع ، وإما إلى الفريقين معا .

وهذا كان حال بعثة محمد رسول الله ﷺ ، فقد أُرسل إلى أهل الكتاب المنتسبين إلى التوحيد وإلى غيرهم من كفّار الأرض فدعاهم جميعا إلى التوحيد الخالص، وإلى شرع جديدٍ مُصدِّقٍ ومهيمن على جميع الشرائع السابقة .

ثالثاً – أولو العزم من الرسل

هم أفضل الرسل وأكرمهم وصفوتهم كما قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ، ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) البقرة / ٢٥٣.

وقد قيلت فيهم أقوال كثيرة أحسنها مانقله البغوى وغيره عن ابن عباس وقتادة : أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى، وعيسى ، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين .[1]

(١) ابن أبى العز الحنفى / شرح الطحاوية / ص ٣٤٩ .
تفسير القرطبى (٩ / ٦٠٤٠ – ٦٠٤١)

وهم المذكورون فى قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)الأحزاب/٧ ،وفى قوله :

(شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الشورى/١٣ .

وقد جُمعوا شعراً فى البيتين التاليين :

وأفضل الخليقة الرسول يليه فى الفضيلة الخليل
ثمّ الكليم ، فالمسيح ، نوح يليه ، فيأتى الرسول يانجيح

ولا شك أن أولى العزم كانو أكثر الرسل صبراً وبلاء فى الأداء والتحمل فنوح لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين يدعوهم إلى التوحيد وإبراهيم ظل يدعو إلى الحنيفية حتى ألقاه قومه فى النار التى جعلها الله برداً وسلامًا عليه وموسى أخرج قومه بعد عناء ومشقة من أرض العبودية إلى بر الحرية وبعيداً عن طغيان جبابرة الفراعنة ، وعيسى الذى أرسل إلى بنى إسرائيل ذوى القلوب المتحجرة ومن دأبوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم ، فمازالوا به حتى أسلموه للموت إلا أن الله رفعه إليه وطهره من أيديهم وخلصه من القتل وكذلك محمد ﷺ ، ظل يدعو فى قومه المشركين فى مكة ثلاثة عشر عامًا تحمّل فيها مالا يطيق بشر من صنوف الألم والإيذاء فى سبيل أداء رسالته وما وهن وما استكان لما أصابه حتى جاءه نصر الله .

ولا غرو فى ذلك، لقد وصفهم عز وجل بالصبر، فقال تعالى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) الأحقاف / ٣٥ ، وهل بعد شهادته شهادة.

أيضا فإن أولئك الأعاظم من الرسل أضحت دعواتهم ورسالاتهم أكثر اتباعاً من غيرها، كما أضحوا هم علامات ورموز وقادة كبار لأمم وشعوب كثيرة.

رابعاً - خاتم الأنبياء

وهو محمد ﷺ ، لقوله تعالى : (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) الأحزاب / ٤٠ ، وقوله ﷺ : (سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ولا نبى بعدى) مسلم (كتاب الفتن / باب لاتقوم الساعة حتى يتمنى الرجل أن يكون مكان الميت من البلاء) .

وهو خير خلق الله وسيدهم فى الدنيا : كما أخبر ﷺ : (إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم) البخارى (كتاب الفضائل / باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم) ، ولقوله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) الترمذى [كتاب المناقب / باب فضل النبى صلى الله عليه وسلم]وفى الأخرة : كما روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة) مسلم (كتاب الفضائل / باب تفضيل نبيينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق) ، وقد صدق من قال فيه :

محمد صفوة البارى ورحمته وخيرة الله من عرب ومن عجم

ويمارى بعض العصريين من دعاة مدرسة الاغتراب التى تسعى إلى نقل النبوة من نسق المعرفة اليقينية القطعية إلى ضرب من التهويمات الظنية الإشكالية ، فى أن محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء وأن رسالته أفضل الرسالات ، فيقول : "يقتضى الفهم التاريخى إدراك أن :كل نبى يؤدى دوره فىمرحلة ما ، والكل على مستوى واحد من الأداء من حيث الأمانة والصدق والتبليغ ومن هنا فإنه لا يوجد تفاضل بين الأنبياء ، ومن ناحية أخرى فإن كون نبوة محمد ﷺ هى نبوة الاكتمال لا يتأدى بالضرورة إلى أنها الأفضل إذ الاكتمال هنا ليس كاكتمال المطلق مستغن عن عناصر سبقته ، بل إنه محتاج إليها حتى أنه لا يُدرَك دونها .

فالحق أن نبوة محمد ﷺ فى حاجة إلى ماسبقها من نبوات لتجد مبررها ، وبذات القدر فإن ماسبقها من نبوات فى حاجة إليها ليجد غايته وبالطبع فإنه يستحيل منطقيا فى إطار هذا الاحتياج المتبادل تصور أفضلية عنصر على الآخر ، إضافة إلى أن تصور الأعلى منطويا على الأدنى يستحيل كذلك منطقيا فى غياب تصور للأدنى منطويا على الأعلى " (١) .

ولا شك أن مثل هذه المماراة القائمة على مجرد رفض وإنكار أحاديثه ﷺ المخبرة بهذا التفضيل ، دونما تقديم دليل من نص قطعى أو سند عقلىّ ،قد لا يجدى معها أيضا وجوه أفضلية خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، والتى منها :-

---

(١) على مبروك / النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ / ص، ٢٤٥ .

١ - دعوته وشريعته

والتى أكمل الله بها الدين وأتم بها النعمة على عباده كما قال تعالى : {اليـــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا } المائدة .

وكما أخبر النبى ﷺ : " إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنـــى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفـــون بـــه ، ويعجبون له ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " البخارى (كتاب المناقب / باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم)

مســلم (كتاب الفضائل / باب كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين).

لذلك فقد جعلها الله تبارك وتعالى دين البشرية جمعـــاء وشـــريعتها على مدار أزمانها وأجيالها . قال تعالى : (وما أرســلناك إلا كافــة للنـــاس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سبأ / ٢٨ . وقـــال : (ومـــا أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء / ١٠٧ ، وقال : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض) الأعراف / ١٥٨.

وكان إرساله ﷺ على هذا النحو من الوجوه التى ذكر أن الله تعالى فضله بها على النبيين ، كما روى الإمام مسلم فى صحيحه من حديث أبـــى هريرة رضى الله عنه أنه قال : (قال رسول الله ﷺ : فُضّلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب ، وأُحلّـــت لـــى الغنـــائم ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتـــم بـــى النبيون) مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة / مقدمة الكتـــاب) ورواة

البخارى عن جابر فى (كتاب الصلاة / باب قوله صلى الله عليه وسلم جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً) .

٢ - كتابه

والذى جعله الله أحسن الكتب ، قال تعالى : (الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى) الزمر / ٢٣، وجعله أعظمها . قال تعالى : (ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم) الحجر / ٨٧ .

لذلك فهو مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيّمن عليه . قال تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) المائدة / ٤٨ .

٣ - معجزاته

وفيها تجمعت أجناس معجزات السابقين جميعها له ﷺ وزاد عليها أن معجزته الكبرى وهى القرآن كانت الوحى الإلهى نفسه الذى تلقاه ، وسنعرض لهذا تفصيلا فى الفصل الثالث .

٤ - حياته

فحياة محمد ﷺ قد جمعت ما فى حياة كل نبىّ من الصفات والفضائل والمزايا كافة ، فنجد فى محمد ﷺ حماس المؤمن وحب الله والناس ، والثبات ، والصبر فى طريق الاستقامة ، والشجاعة التى لا ضعف فيها، مقاومة المعتدين ، والتسليم والخضوع لمشيئة الله مقرونة كلها بصفات القائد السياسى والمصلح الاجتماعىّ ، وقد امتزجت فيه هذه الصفات كلها امتزاجاً بديعاً حتى بدا الكمال ذاته فى كل نواحيه ، وبدت الفضائل والمزايا

منسجمة يكمل بعضها بعضاً ويدعم بعضها بعضاً ، فلا زيـــادة فيـــها ولا نقصان ، إنما هى الميزان وإتقان التركيب اللذان يشعران المرء بأن هذا هـــو القدوة الكاملة للناس كافة (١) .

وقد دفع ذلك مايكل هارت فى كتابه (المائة) الذى ترجمه أنيس منصـــور ، أن يضع محمدًا ﷺ على رأس أعظم مائة شخصية فى تاريخ العالم .

٥ - خُلَّته للرحمن

فقد ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة وهى الخُلَّة (٢) ، كما قال ﷺ : (إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا) سنن ابن ماجة (المقدمة / باب فى فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم] وكما قال : (لو كنــت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليـــل الرحمن) البخارى [كتاب فضائل الصحابة / باب فضل أبى بكر).

لكن خُلَّة النبى ﷺ تفوق خلة إبراهيم ، بل وكل خلة غيرها ، فالله تبـــارك وتعالى قد خصّ خليله محمداً ﷺ بمزيَّتين لم ينلهما خليل قط ، وهما :

أ - أن الله قد ربط اسمه عز وجلّ باسم النبى ﷺ فى شهادة التوحيد " لا إله إلا الله محمد رسول الله " تنطق بها الألسنة وتنادى بها المآذن علـــى مـــدار اليوم والليلة فى كل بقعة من بقاع العالم .

---

(١) عبدالحميد صديقى / النبوة فى الإسلام / ص ٥٣ .

(٢) شرح الطحاوية / ص ١٧٤ - ١٧٥ .

ب - أنه لم يخاطبه باسمه ﷺ مجرداً ، بل خاطبه إما بصفته (يا أيها الرسول) ، (يا أيها النبى) ، أو بحاله ﷺ (يا أيها المدثر) (يا أيها المزمل) ، بينما خاطب الأنبياء والمرسلين بما فيهم أولو العزم الأربعة ومنهم الخليل إبراهيم بأسمائهم المجردة .

وقد التفت إلى الاختلاف فى أسلوب النداء القاضى عياض فى كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) سابقا بذلك مدرسة الأشكال الأدبية بعدة قرون.

٦ - اتباع الأنبياء والمرسلين له .

فقد أخذ الله - تعالى - عهدا وميثاقا من جميع الأنبياء والمرسلين بالإيمان به واتباعه ﷺ . قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُن به ولتنصرُنَّه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) آل عمران / ٨١.

٧ - شفاعته العظمى يوم القيامة

وهى أنواع[١] منها شفاعته لأهل الجنة وشفاعته لعصاة أمته ، كما ورد ذلك فى حديث الشفاعة الطويل فى الصحيحين .

٨ - شهادته على الخلق فى الدنيا والأخرة

---

(١) شرح الطحاوية / ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .

يقول تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) البقرة / ١٤٣ ، ويفسر الأستاذ سيد قطب شهادة النبى ﷺ على الناس فى الدنيا بأن الأمة الإسلامية هى الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعاً ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدى فيهم رأيا فيكون هو الرأى المعتمد ، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل فى أمرها، وتقول هذا حق وهذا باطل ، وهى شهيدة على الناس فىمقام الحكم العدل بينهم ، وبينما هى تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول هو الذى يشهد عليها ، فيقرر لها موازينها وقيمها ، يحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن مايصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة [1] .

أما شهادته ﷺ على الخلق فى الأخرة فيخبر بها الله عز وجل فى قوله : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) النساء / ٤١ .

خلاصة : نخلص مما سبق إلى ما يأتى :-

١ – أن مراتب النبوة فى الإسلام صُنِّفت على أساس من الوحى وتفضيل الله لبعض أنبيائه على بعض ، ولا دخل للشعوبية أو العنصرية فيها .

٢ – أن تصنيف مراتب النبوة تصنيف درجات وليس تصنيف فئات فالجميع ينتمى إلى مؤسسة واحدة هى مؤسسة النبوة ويتفاضلون فى المكانة .

---

(١) سيد قطب / الضلال (١ / ١٣٠ – ١٣١) .

٣ – أن الإسلام لا يعرف النبوة الجماعية ، كجماعة " بنى الأنبيـــاء " فـــى اليهودية، أو جماعة " الرسل " أو غيرها فى المسيحية ، فالنبوة فى الإســـلام أساسها الاصطفاء الإلهى ولا تكتسب عـــن طريـــق التعليـــم والمدارســـة أو الاقتراع .

٤ – أن الإسلام لا يجيز نبوة النساء ، وقد خالف البعض ذلك الإجماع فيمـــا ذهب إليه من القول بنبوة أم إسحاق ، ومريم ، وأم موسى ، وأســـية امـــرأة فرعون لتلقيهن نوعًا من الوحى [1] .

وقد أُجيب على ذلك بأنه ليس كل من يتلقى الوحى العام يكون نبيـــا ،فإنه قد يوحى إلى غير البشر ، كما قال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل) النحل / ٦٨ ، وكما قال: (وأوحى فى كل سماء أمرها) فصلت / ١٢ .

وقد أوحى الله إلى يوسف وهو صغير : (وأوحينا إليه لتنبّئنهم بأمرهم هـــذا وهم لا يشعرون)يوسف / ١٥. وأوحى إلى الحواريين: (وإذ أوحيت إلـــى الحواريين) المائدة / ١١١ .فهؤلاء المحدّثون الملهمون المخاطبون يُوحـــى إليهم هذا الحديث الذى هو لهم خطاب وإلهام وليسو بأنبياء [2] .

كما رُدَّ على ذلك بقوله تعالى فى ثلاثة مواضع فى القرآن : (ومـــا أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القـــرى) يوسف/١٠٩ (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمـــون)

(١) ابن حزم / الفصل (٥ / ١٢ – ١٣) .
القرطبى / الجامع لأحكام القرآن (٣ / ١٣٢٥ – ١٣٢٦)
(٢) ابن تيمية / النبوات / ص ١٦٧ .

النحل / ٤٣ ، (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) الأنبياء / ٧ .

أما ما ذهب إليه ابن حزم من أن المقصود بالرجال فى تلك الآيات إنما هم الرسل وليس الأنبياء [١] ، فمردود عليه بأن الله – تعالى – قد نصَّ على إرسال النوعين الأنبياء والمرسلين ، فقد تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنّى)الحج / ٥٢ .

(١) ابن حزم / الفصل (٥ / ١٢) .

المبحث الثالث

عصمة الأنبياء

وما كان لنبى أن يَغُلَّ ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة

(آل عمران / ١٦١)

لأن الأنبياء خيرة الله فى خلقه وحجته على عباده ، والوسائل إليه ، وأبواب رحمته ، وأسباب نعمته ، فإنه – سبحانه – قد اصطفاهم من الخَلْق قولا بالرسالة والنبوة ، واصطفاهم فى الخُلُق فعلا بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق(١).

وقد اصطُلح على تسمية هذا الكمال والاصطفاء الخُلُقى بالعصمة . وهذه العصمة ذات شقين ، هما :

أولا : الشق الأول (العصمة الأخلاقية)

وهى حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع فى الذنوب والمعاصى وارتكاب المنكرات والمحرمات (٢) ، أو ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة على ذلك .

وتشمل هذه العصمة الأخلاقية جانبين :

---

(١) الشهرستانى / نهاية الأقدام / ص ٤٦٣ .

(٢) محمد على الصابونى / النبوة والأنبياء / ص ٥٤ .

أولهما : جانب الإثبات

وفيه تثبت للأنبياء مجموعة من الصفات الأخلاقية الحميدة واللازمة لطبيعة مهمتهم ، ومنها [1]:

١ - الصدق

وهو من ألــــزم صفــات النبــوة نظــرا لمــا يــترتب عليــه مــن الثقــة فيما ينقلونه من أخبار الوحى ، وقد أثبت المولى لهم هذه الصفة فـــى قولـــه تعــالى : (هــذا مــاوعد الرحمـــن وصـــدق المرســلون) يـــس / ٥٢ وقوله:(قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله)الأحزاب / ٢٢

وقد كان النبـــى ﷺ حتـــى مـــن قبـــل بعثتـــه يُلَقَّـــب بالصـــادق الأميـــن ، فـــالصدق ليـــس فقـــط فـــى الإخبـــار بمـــا يطـــابق واقـــع الوحى والأحكام المبلَّغة ، بل ينصرف أيضـــا إلـــى المعتـــاد مـــن الكـــلام والخبر ونظرا لما تنطوى عليه هذه الصفة مـــن أهميـــة ولمـــا تلعبـــه مـــن دور فقد حكم الله تعـــالى حكمًـــا فـــاصلاً فيمـــن يكـــذب فـــى الوحـــى أو الإخبار عنه تعالى ، (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين) الحاقة / ٤٤

٢ - الأمانة

وهى حفظ ماأودعهم الله من وحى ، ثم إبلاغه كاملا غير منقـــوص ولامُبَدَّل ، كما حكى تعالى فى القرآن عن محمد ﷺ : (قل ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى ، إن أتّبع إلا ما يوحى إلىّ) يونس / ١٥ .

(١) محمد علي الصابوني/النبوة والأنبياء / ص ٤٢ .

ومثل تلك الأمانة الثابتة للأنبياء هـــى التــى منعــت النبــى ﷺ كما تحكى عائشة – رضى الله عنها – من كتمان قوله تعالى : (وتخفى فــى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) الأحزاب/ ٣٧ .

وهذه الأمانة ليست قاصرة على حفظ الوحى وإبلاغه ، بل تمتد إلــى الأمانة فى المعاملات الدنيوية ، يقول تعالى : (وما كان لنبىّ أن يَغُلَّ ، ومن يَغْلُل يأت بما غلّ يوم القيامة) آل عمران / ١٦١ . يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير هذه الآيـــة : " ماكان له : أى ليس من شأنه أصلا ولا من طبعه ولا من خلقه . فالنفى هنا نفى لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيا لحِلِّه أوجوازه، فطبيعة النبى الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء " [١] .

٣ – التبليغ

وهو أداء ما حُمّلوا من الشرائع والأحكام إلى الناس ، ويمكن القــول بأن البلاغ ليس صفة أخلاقية من صفات المرسلين بل هو وظيفة من وظائفهم كما يظهر من قوله تعالى : (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) النحل / ٣٥ وقوله : (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغــت رسالته) المائدة / ٦٧ .

٤ – الفطانة

وهــى الذكــاء ورجاحــة العقــل ، ومــن الآيــات التــى تشــهد للأنبيــاء بالذكــاء والرشــد ورجاحــة العقــل ، قولـــه تعـــالى فـــى

(١) الظلال (١ / ٤ – ٥) .

الخليل إبراهيم (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين)الأنبيـاء ٥١ وقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن)النحل / ١٢٥ ، وقوله : (قـالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا } هود / ٣٢ ، والجدال لا يكون إلا مع كمال العقل وقوة الحجة .وإلى جانب هذه الصفات قد أثبت البعض للأنبياء قـوى وخصائص أخرى لخصها الرازى من خلال تفسيره لسورة الأعلـى ، فـى كمال قوى أربع هى [1] :

١ - **كمال القوة النظرية** : وهى قوة نفسه الآمنة من الغلـط والنسـيان إلا ماشاء الله ، وهذا الكمال هو ما أشار إليه تعالى بقوله : (سنقرئك فلا تنسـى إلا ماشاء الله) الأعلى / ٦.

٢ - **كمال القوة العملية** : وهى قوة دواعيه فى الأعمال التى تفيـد اليسـر والسعادة فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى :(ونيسّرك لليسرى) الأعلى/ ٨ .

٣ - **قدرته على تكميل القوة النظرية لغيره** : وتتمثل فى إرشاده النـاقصين والمحتاجين إلى التكميل : (فذكِّر) الأعلى / ٩ ،والقابل لهذا التكميل هـو الذى : (أفلح من تزكّى) الأعلى / ١٤ .

٤ - **قدرته على تكميل القوة العملية لغيره** : وتتمثل فـى نفعـه وإعانتـه الراغبين فى الكمال على تحصيل ماينبغى ، والسعيد القابل لهذا التكميل هـو المشار إليه فى قوله تعالي : (وذكر اسم ربه فصلى) الأعلى / ١٥ .

---

(١) الرازى / النبوات / ص ١٧٨ - ١٨٠ .

والثانى : جانب التنزيه

وهـــو يتعلـــق بكونـــهم قـــدوة البشـــر الحســـنة وأســـوتهم الصالحـــــة ، وقادتهم الملهمة ، فلو قُدِّر وقوعهم فى المعـــاصى ، وارتكابـــهم الموبقـــات واقترافهم الآثام لسقطت عنهم مؤهلات القيادة والقدوة والايتساء .

لذا فقد لزم امتناع المعاصى عليهم وثبوت التنزيه عنها فى حقـــهم ، وقد اختلف موقف طوائـــف علمـــاء الإســـلام مـــن تنزيـــه الأنبيـــاء عـــن المعاصى باختلاف حجم المعصية [كبائر أو صغائر] ، وليس باختلاف نوع المعصية (مايتعلق بالاعتقاد أو الأفعال أو الأحوال) ، وذلك علـــى النحـــو التالى :

١ - **الكبائر** وقد اجتمعت الأمة على عصمة الأنبياء من ارتكـــاب الكبـــائر سيان ما تعلّق منها بالاعتقاد أو الأفعال أو الأحـــوال، مـــاخلا الكرّاميـــةمن المرجئة (١)

٢- الصغائر

انقسمت آراء العلماء تجاهها إلى فريقين :

الفريق الأول يرى عصمة الأنبياء من صغار الذنـــوب وإن دقـــت كعصمتهم من كبيرها ، وذلك من أجل اطمئنان القلوب إليهم ، ولاســـتحقاق التكليف الإلهى الذى اختارهم الله تعالى لأجله ، كذلك كى يكونوا جديريـــن

(١) ابن حزم / الفصل (٤ / ٢)
- ابن تيمية / مجموع الفتاوى (٤ / ٣١٩)
- الرازى / عصمة الأنبياء / ص ٢٦ - ٢٦

بالمكانة التى انتدبهم الله لها كقدوة صالحة وأسوة حسنة للبشر أجمعين،ويمثل هذا الفريق الرافضة والشيعة والمعتزلة [١].

أما **الفريق الثانى** وهو جمهور المسلمين وأكثر علمائهم وطوائفهم فيقولون بعصمة الأنبياء من الكبائر دون الصغائر ، فيرون جواز وقوع صغائر الذنوب من الأنبياء،واستدلوا على ذلك بالوقائع التالية : [٢]

١ – معصية آدم بأكله من الشجرة المنهى عن الأكل منها ، كما قال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا ياآدم إن هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال : ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى)طه/١١٦ – ١٢١).

٢ – دعاء نوح فى ابنه الكافر (ونادى نوح ربه فقال : ربِّ إنّ ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال : يانوح ! إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) هود / ٤٥ – ٤٦ .

---

(١) الرازى / عصمة الأنبياء / ص ٢٧ .
القاضى عبدالجبار / المغنى (٢٥ / ٣٠٩) ، شرح الأصول الخمسة / ص ٥٧٣ ، ٥٧٥ .
محمد رضا المظفر / عقائد الإمامية / ص ٦٠ – ٦١ .

(٢) ابن حزم / الفصل (٤ / ٢ – ١٩)
الرازى / عصمة الأنبياء / ص ٢٨ – ١٤٤
ابن تيمية / مجموع الفتاوى (/ ٣١٩ – ٣٢٠، ١٠ / ٢٩٢ – ٢٩٦)

٣ – قتل موسى للمصرى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضلّ مبين) القصص / ١٥.

٤ – تسرُّع داود فى الحكم قبل سماع الخصم الثانى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعضٍ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظنَّ داود أنما فتناه) سورة ص / ٢١ – ٢٤.

٥ – عتاب الله نبينا محمداً ﷺ فى الأمور التالية :

* تحريم بعض ما أحل الله : (ياأيها النبى لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم) التحريم / ١ .

* عبوسه فى وجه ابن أم مكتوب : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعلّه يزّكّى ، أو يذّكّر فتنفعه الذكرى) عبس / ١ – ٤.

* قبوله الفدية من أسرى بدر : (لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذابُ عظيم) الأنفال / ٦٨.

لكن هذه الصغائر التى وقعت من الأنبياء لا تقدح فـــى اســتحقاقهم التكليف الإلهى ، ولا فى جدارتهم بالمكانة التى انتُدبوا لــها كأســوة وقــدوة حسنة للبشر ، وذلك للأسباب التالية :-

أولا : أن هذه الصغائر لم تبق خافية بل أظهرها الله ، ونبّــه أنبيــاءه إلــى ماصدر منهم من مخالفات ، ولم يقرهم عليها ، وبالتــالى فلســنا مــأمورين بالاقتداء بهم فى أمثال هذه الواقعات ، ويكون شأنها شــأن المنســوخ الــذى وجب تركه (١) .

ثانيا : أنها قد وقعت على أحد وجهين ، إما من باب الســـهو ، وإمــا مــن باب قصد الشئ يُراد به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراده (٢) .

ثالثا : أن الذنوب لا تنافى الكمال إذا ماقترنت بالتوبة النصوح التى يرفع بها الله صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ،ويبدل سيئاته حسنات كما قال تعــالى : (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) الفرقــان / ٧٠ ؛ لذلك لم يذكر القرآن شيئا من هذه الصغائر عن نبى من الأنبيـــاء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار(٣) .

وذلك كقول آدم وزوجته : (ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفــر لنــا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف / ٢٣ . وقول نوح : (رب إنــى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنــى أكــن مــن الخاسرين) هود / ٤٧ . وقول الخليل : (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين

---

(١) ابن تيمية / مجموع الفتاوى (١٠ / ٢٩٣)
(٢) ابن حزم / الفصل (٤ / ٢ ، ٣ ، ١٧) ، الدرة فيما يجب اعتقاده / ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .
(٣) ابن تيمية / مجموع الفتاوى (٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦) جامع الرسائل (١ / ٢٦٩ - ٢٧٠)

يوم يقوم الحساب) إبراهيم / ٤١ ، وقوله (والـذى أطمـع أن يغفـر لـي خطيئتى يوم الدين) الشعراء / ٨٢ ، وقول ذى النـون: (لا إلـه إلا أنـت سبحانك إنى كنت من الظالمين) الأنبياء / ٨٧ ، وقوله تعـالى عـن داود (استغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلْفى وحسن مآب) سورة ص / ٢٤ - ٢٥ ، وقول سليمان :(رب اغفر لى وهب لـي ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) ص / ٣٥، وقـول موسى : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) القصص / ١٦ ، وقوله : (تبت إليـك وأنا أول المؤمنين) الأعراف / ١٤٣.

ويؤكد المعتزلة على بُعْد آخر فى جانب التنزيه ، وهـو أن يُـنَزَّه الأنبياء عن كل ماينفِّر أو يتسبّب فى عدم سكينة النفوس إليهم فيمـا يتعلّـق بأحوال الخِلْقة[1]، ولا جدال فى أن هذا يعين النبى علـى القيـام بواجبـات وأعباء رسالته على أفضل وجه ممكن . فالكمال ذو جوانب خَلْقيـة وخُلُقيـة والأنبياء أحق به بجانبيه .

ثانيا : الشق الثانى (العصمة فى التبليغ)

وهى حفظ الله لأنبيائه حتى يبلغوا رسالات ربهم،ذلك الحفظ الذى يشمل [2] :

أ - حفظهم عن : النسيان ، والكذب فى البلاغ ، والخطأ ، والكتمان .

ب - تأييدهم وحفظهم من شياطين الإنس والجن ، فلا يقدرون علـى تغيير مابعث الأنبياء به ، أو منعهم من تبليغه .

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٥ / ١٨)

(٢) ابن تيمية / النبوات / ص ٢٢١ - ٢٢٢

وإن كنت أرى اختصاص ذلك بمحمد ﷺ ، لأن الكتب السابقة أوكل حفظها إلى الربانيين (والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله) المائدة/ ٤٥

وعصمة الأنبياء فى التبليغ معلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع [1] . فالقرآن يخبرنا أن الله قد عصم أنبياءه عن النسيان فيقول تعالى : (سنقرئك فلا تنسى،إلا ماشاء الله) الأعلى/ ٦ . أى لا تنسى شيئا من الوحى إلا ما أراد الله ، ويقول تعالى مخبراً عن تكفله جمع الوحى فى قلب الموحى إليه : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) القيامة / ١٦ – ١٨ ، ويقول تعالى عن ضمان التبليغ : (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) المائدة / ٧٦ وعن استحالة القدرة على الكذب : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) الحاقة / ٤٤ – ٤٦ ويجمع كل ذلك فى آية قاطعة جامعة :(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) النجم/ ٣ – ٤.

وعن ضمان التمكين من البلاغ فى مواجهة شياطين الإنس والجن يقول تعالى : (والله يعصمك من الناس) المائدة / ٦٧ ، ويقول : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عدداً) الجن/٢٦ – ٢٨

(١) ابن تيمية / مجموع الفتاوى (١٠ / ٢٩٥) .

والعقل يلزم بهذه العصمة ، إذ بدونها لا يحصل مقصود النبوة والرسالة ، إذ لمّا كانت النبوة والرسالة هى النبأ أو الخبر فقد وجبت العصمة عن الخطأ فى نقل هذا النبأ الذى هو مقصود النبوة والرسالة (١) .

والإجماع قد ثبت باتفاق الأمة على عصمة الأنبياء فى التبليغ عن رب العالمين(٢).

ويمكن القول إن العصمة بشقيها : عصمة الأخلاق ، والعصمة فى التبليغ ليست فقط من مفاخر مبحث النبوة فى الإسلام ، بل هى مما انفرد به التصور الإسلامى للنبوة عن كل فكر أو تصور سابق فى تاريخ الدين والنبوة فى العالم .

وهذا التصور هو الضامن الوحيد للبشرية فى انصياعها لكلمة الوحى الإسلامى المعصومة فى تلقيها ونقلها ووجودها ، والصادرة من فم رسول معصوم لا مجال للخطأ أو الزيغ فيما يبلغه ، ولا غضاضة فى اتباعه وهو الكامل فى أخلاقه وخلقه .

---

(١) ابن تيمية / مجموع الفتاوى (١٠ / ٢٩٠ ، ١٥ / ١٤٨) ، النبوات / ص ٢٢١ .
(٢) ابن تيمية / مجموع الفتاوى (١٠ / ٢٨٩ ، ١٥ / ١٤٨)

المبحث الرابع

ختم النبـــوة

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

(الأحزاب / ٤٠)

تمثـل عقيـدة ختـم النبـوة بمحمـد ﷺ أحـد أهـم الأركـان التى شُيِّد عليـها صـرح العقيـدة الإسـلامية ، بـل وصـرح الحضـارة الإسلامية كذلك . وقد ظلت هذه العقيدة بمنأى عن النقـاش والشـكوك بيـن جمهور طوائف المسلمين لما تواتر بشأنها من دلائل الشرع والعقل والإجماع فالله تعالى يقول : (ماكان محمد أبا أحد من رجـالكم ، ولكـن رسـول الله وخاتم النبيين) الأحزاب / ٤٠ ، ويقول ﷺ : (إن مثلى ومثل الأنبياء مـن قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويـة فجعـل الناس يطوفون به، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنـا اللبنة وأنا خاتم النبيين) ، البخارى (كتاب المناقب / باب خاتم النبيين صلـى الله عليه وسلم)ويقول ﷺ : (وإنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون ، كلـهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى) مسلم (كتاب الفتن / باب لا تقوم الساعة حتى يتمنى الرجل أن يكون مكان الميت من البـلاء) ، وقـال ﷺ : (فُضّلت على الأنبياء بست : أُعطيت جوامـع الكلـم ، ونُصـرت بالرعب ، وأُحلَّت لى الغنائم ، وجُعلـت لـى الأرض مسـجداً وطـهوراً ،

وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بى النبيون) مسلم (كتاب المساجد / باب جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً) .

والعقل الصحيح دلّ على كونه ﷺ خاتم النبيين وأن رسالته خاتمة الرسالات لما تتضمنه من مقومات وخصائص تسد حاجة الإنسانية ومطالب العقل والروح والجسد الإنسانى مما ذكرنا طرفاً منه عند الحديث عن مرتبة خاتم الأنبياء ، وعند عرض دلائل نبوته ﷺ .

لكنَّ هنالك وجوها أخرى تدل على كونه ﷺ خاتم النبيين ، ويتمثل ذلك فى حفظ كتابه ورسالته وسيرته بكل دقائقهم ومعالمهم حفظا كاملا بصورة جليّة وواضحة تمكن طالب الهداية من الوقوف عليها بسهولة ويسر يقطعان الطريق على الحاجة إلى مجئ نبىٌ جديد لتبيين وتصحيح المطموس أو المحرّف [١] .

أما الإجماع فقد انعقد على أنه خاتم الأنبياء وأن كل من ادعى النبوة بعده فقد كذب وكفر [٢] ، حتى أن أبا حنيفة عندما بلغه أن رجلا قد ادعى النبوة وقال أمهلونى حتى أجئ بالعلامات ، قال : من طلب منه علامة فقد كفر [٣] .

كذلك يستدل على ختمه ﷺ ورسالته النبوة والرسالات بمجموعة أخرى من الأدلة تسمى الأدلة الذاتية ، وهى عبارة عن الخصائص الرئيسية

(١) عبدالحميد صديق / النبوة فى الإسلام / ص ٦٩ .

(٢) ابن أبى العز / شرح الطحاوية / ص ١٧٦ .

(٣) ابن أحمد المكى / مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان (١ / ١٦١) .

والمقومات الأساسية للإسلام والتى تضمن له الخلود وتكفل له الهيمنة على الدين كله ، لملاءمتها الفطرة الإنسانية التى لايمكنها النزوع عنها ولا يسعها إلا الانقياد لها والتسليم بها ، وتفيد تلك الأدلة الباحثين فى الإسلام من غير المسلمين وهىقاطعة فى الرد على المتشككين فى صلاحيته لقيادة البشرية وفضله على غيره من الأديان ، وقد بسطها العامرى فى كتابه الثمين " الإعلام بمناقب الإسلام " ويمكن إجمالها فيما يلى [١] :

١ - فضل الإسلام بحسب الأركان الاعتقادية :

أ - التوحيد ، لم يُعْنَ أهل دين من الأديان بتقديم المقدمات العقلية لاستخراج النتائج فى استخلاص توحيد الله ماعُنى به علماء الإسلام [٢].

ب - إثبات الرسل ، لم يسلم دين من الأديان من الغلو والتقصير إلا الإسلام

جـ - إثبات الملائكة ، لم يسلم دين من العقائد السقيمة فى الملائكة إلا الإسلام .

د - إثبات الكتب ، استجمع القرآن من الفضيلة ماباين به جميع كتب أهل الملل .

هـ - إثبات المعاد ، وفضل الإسلام فيه لا يقارن بغيره .

٢ - فضل الإسلام بحسب الأركان العبادية .

---

(١) العامرى / الإعلام بمناقب الإسلام / ص ١٢٣ - ١٨٣ .

(٢) كان الأولى بالعامرى أن يُعنى بالإشارة إلى تأسيس القرآن لعقيدة التوحيد وبسطها .

فإذا كان أحق الأديان بطول البقاء ماوجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين فإن العبادات الإسلامية من أحسن وأفضل العبادات النفسية والبدنية والمالية والمشتركة من حيث الكمية والكيفية .

٣ - فضل الإسلام بحسب النظام السياسى

والإسلام إمام الملل فى أمر السياسة والملك ، لأنه لم يجرد سيفاً إلا لإعلاء كلمة الله ، ولم تقم له دولة إلا لتمكين شرع الله فى الأرض ، لذلك فحكم الإسلام رحمة للعالم .

٤ - فضل الإسلام بحسب النظم الاجتماعية

وهو يفوق كل الأديان بما اشتمل عليه من رعاية وكفالة للضعيف والمخالف ، وعدالة فى القضاء والعطاء بين الجميع على حدٍّ سواء

٥ - فضل الإسلام بحسب العمران

حيث نشر الإسلام الخير والنماء على بقاع المسكونة التى حطت فيها رحاله مما لم يسبق له نظير .

٦ - فضل الإسلام بحسب المعارف

وفى ذلك بلغ شأن الإسلام مالم يبلغه دين آخر فى مجالات العلوم الملّية والحكمية والتجريبية .

وقد كان لعقيدة ختم النبوة فى محمد ﷺ ، بما امتازت به من قطع ويقين وبرهان آثار متعددة على المجتمع الإسلامى ، منها :-

١ - أن تلك العقيدة أضحت فيصل التفرقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم ، إذ كما يقول محمد إقبال فإن : " **الإيمان بأن محمداً خاتم**

الأنبياء والمرسلين هو الذى يميز المسلمين ، ويمكّن المرء من أن يحكم بأن فردا ما أو مجموعة ما هى من أمة الإسلام أم لا ، فالبراهميون مثلا يؤمنون بالله ويؤمنون بأن محمداً ﷺ نبى من أنبياء الله ، ولكنهم ليسوا من الإسلام فى شئ ؛ لأنهم مثل القاديانيين يعتقدون بتواتر الرسل ولا يؤمنون بختام النبوة بمحمد ﷺ ، ولا أعلم أن مذهباً من المذاهب الإسلامية قد تجرأ على اجتياز هذا الحد الفاصل بين أمة الإسلام وغيرها ، وقد أنكر البهائيون فى إيران صراحة مبدأ ختام النبوة ، ولكنهم فى الوقت نفسه اعترفوا صراحة أيضا بأنهم أمة أخرى وليسوا مسلمين " (١) .

٢ - أنها جنّبت المجتمع الإسلامى كثيراً من الشرور والآفات الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى عجت بها المجتمعات التى لم تحسم فيها قضية ختم النبوة (٢) .

٣ - أنها أسهمت بنصيب وافر فى ازدهار حركة الرقى العلمى والحضارى والفكرى فى العالم الإسلامى إذ لم يقتصر تأثيرها على ما وراءالمادة كعقيدة دينية بل امتد إلى شتى مجالات المدنية الإسلامية (٣)

يضاف إلى تلك الآثار أن عقيدة ختام النبوة بمحمد ﷺ قد نأت بمقام نبوة محمد ﷺ وحفظته عن تطاول أدعياء النبوة ممن عُرفوا فى

---

(١) نقلا عن عبدالحميد صديقى / النبوة فى الإسلام / ص ٨٤
(٢) عبدالحميد صديقى / النبوة فى الإسلام / ص ٨٢ - ٨٦
(٣) عبدالحميد صديقى / النبوة فى الإسلام / ص ٩٤ - ٩٩

تاريخ اليهودية والمسيحية باسم جماعات الأنبياء الكذبة وما لابس ذلك من مداخلات وصراعات ألقت بكثير من الشكوك والظلال حول حقيقة النبوة في اليهودية والمسيحية مما اقتضى البحث عن معايير للتفرقة بين الأنبياء الصادقة والأنبياء الكاذبة .

وقد امتاز إعلان ختم النبوة فى الإسلام كما يسجل ذلك العلامة كارستن كولبى Carsten Colpe فى كتابه " خاتم النبيين " بأنه الإعلان الوحيد فى تاريخ النبوة الذى يصدر عن صاحبه وفى حياته ويسجله كتابه ، وذلك فى وضوح ودقة وقطع لا مجال فيه للبس أو غموض ، إذ هو ليس كغيره من الإعلانات السابقة التى تُحصَّل عن طريق الاستنباط أو التحليل (١) .

لكل ذلك فإن دعوى محمد ﷺ أنه خاتم النبيين لا تعترضها حجة قوية من شرع صحيح أو عقل صريح ، لا من جهة المسلمين ولامن جهة غيرهم من اليهود والنصارى .

فقد ثبت أن اليهود ينتظرون نبياً ، وأن باب النبوة فى المسيحية لم يغلق بعد المسيح عليه السلام ؛ لذلك فليس هناك مانع من كون محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

ويثبت ذلك له ﷺ بطريقين أولهما ثبوت نبوته بالدلائل والبراهين القطعية وذلك موضوع الفصل الثالث .

(١) **Carsten Colpe, Das Siegel der Propheten, S : 227.**

والثـــانى بطريــق ارتفـــاع الأســباب الداعيــــة إلــــى بعـــث نبـــى بعده ﷺ ، والمتمثلة فى واحد أو أكثر من الأسباب التالية [١] :

١ - ألا يكون قد جاء فى أمة رسول لهدايتها وتعليمـــها ، وكـــانت الحاجـــة تقتضـــى مجيئـــه بموجــب عمـــوم الفـــائدة المذكـــورة فىقولـــه تعـــالى (ولكل قوم هاد) الرعد / ٧.

٢ - أن يكون الرسول قد بلغ رســـالته ، ولكـــن اندثـــرت آثارهـــا ووقـــع التحريف والتبديل فىتعليمه وكتابه المنزل عليه من الله ، وانمحـــت معـــالم سيرته وأعماله حتى لم يعد بوسع الناس أن يتبعوه ويتلقوا هديه وشرائعه .

٣ - أن تكون تعاليم الرسول أو الرسل الســـابقين ناقصـــة وبحاجـــة إلـــى التكميل حتى تتلاءم مع مقتضيات ومتطلبات الأعصر اللاحقة .

ومعرفة ارتفاع هذه الأسباب الثلاثة بمجئ محمـــــد ﷺ معلومـــة بالاضطرار لدى كل من نظر فى دعوته ﷺ فمن حيث :

١ - **ارتفاع السبب الأول** ،فمعلوم أن محمداً ﷺ قد ذكر أنه أرســـل إلـــى جميع بنى آدم عربهم وعجمهم ، بل إنه أرسل إلى الثقليـــن الجـــن والإنـــس جميعاً . فيقول تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)ســـبأ / ٢٨ ، ويقول تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض) الأعراف / ١٥٨ ، ويقول : (قل أوحى إلى أنـــه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآ نا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا بـــه ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) الجـن

(١) محمود رزق ماضى / نبوة محمد صلى الله عليه وسلم / ص ١١٨ .

١ - ٣ ويقول تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الأخرة من الخاسرين) آل عمران / ٨٥ .

وروى عنه ﷺ أنه قال : " فُضّلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأُحلّت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون " البخارى (كتاب الصلاة / باب قوله - صلى الله عليه وسلم - جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً) .

وقد وضع النبى ﷺ تلك الدعوى موضع التنفيذ ، فأرسل كتبه مع رسله إلى هرقل ملك الروم النصارى ، والمقوقس حاكم مصر القبطية ، وكسرى ملك الفرس الوثنيين ، يدعوهم إلىالإسلام كما هو مبسوط فى كتب السنة والسيرة .

٢ - **ومن حيث ارتفاع السبب الثانى** ، فقد أخضع المنصفون من العلماء غير المسلمين النص القرآنى لمعايير علوم تاريخ النصوص ونقدها ، وانتهوا إلى أن القرآن قد بقى محفوظاً من التحريف والتغيير وأنه يعود بنصه إلى محمد ﷺ [1] .

وليس حفظ القرآن بهذه الصورة الدقيقة المعجزة راجعاً إلى عبقرية المسلمين أو العرب؛ لكن الأمر يرجع إلى أن الله قد تولى وتكفل بنفسه سبحانه حفظ ذلك الكتاب [2] .

---

(١) محمد حسين الصغير / المستشرقون والدراسات القرآنية / ص ٨٨ .

(٢) د. محمد عبدالله الشرقاوى / الإيمان / ص ٢٢٥ .

فسلامة نقل وتواتر النص القرآنى تعود إلى وجه من وجوه إعجازه وهو إعجاز الحفظ، ذلك الذى قرره المولى فى قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر / ٩، وقوله : (وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فصلت / ٤١ - ٤٢

وقد لازم إعجاز الحفظ نزول القرآن على النبى ﷺ بجمع الآيات وبيانها وتثبيتها فى قلب النبى ﷺ كما تشير الآية : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) القيامة / ١٦ - ١٨ . ثم امتد إلى الوقاية من النسيان كما أخبر سبحانه : (سنقرئك فلا تنسى) الأعلى / ٦ ، ثم إلى تيسيره للحفظ والذكر على المسلمين ، رجالاً ونساءً وأطفالا ، يقول تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) القمر / ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ . حتى أصبح حفاظه يعدون بالملايين

ثم امتد إعجاز الحفظ ليكشف جمع القرآن وفق ذلك المنهج التوثيقى الذى لا تعرف البشرية له مثيلا أثناء خلافة أبى بكر الصديق ، ثم فى استنساخه فى عهد عثمان رضى الله عنهما وحرق ماعداه من النسخ ، على ماهو مبسوط فىكتب علوم القرآن .

ثم " استمر محفوظاً فىالصدور ومسجلاً فى السطور ، ترعاه - حق الرعاية - دول وأمم وشعوب وحكومات ، تتوارث حفظه ورعايته الأجيال الطاهرة جيلا بعد جيل إلى يوم الناس هذا ، حيث هيأ الله

وسائل حفظ جديدة فتح الله مغاليقها للناس من طباعـــة متقدمـــة ، وأشـــرطة مسجلة وخزانات (الكمبيوتر) الخ " (١) .

ولم يقتصر الحفظ من التبديل والتحريـــف علـــى القـــرآن الكريـــم دستور الإسلام ؛ بل شمل أيضا سنة النبى ﷺ وسيرته كاملة على نحومـــن الدقة دفع جون ديفنبورت للقول بأنه : " **يمكننا أن نقول إنه لم تكتب ســـيرة أحد من كل المشرعين والفاتحين المعروفين بإسناد أوثق وتفصيل أكثر مما كتبت به سيرة محمد ﷺ** " (٢) .

ويعد حفظ سُنّة محمد ﷺ وسيرته ليس فقط من مفاخر المســـلمين، بل إنه تفرد فى مجال الملل والنحل ، كما يقول عبدالحميد صديقى فى كتابـــه النبوة فى الإسلام: " **ويتجلى فى تاريخ الأديان امتياز محمد ﷺ بأنه هـــو النبى الوحيد الذى كتبت سيرته كتابة مفصلة متصلة موثوقـــة تؤهلـــه لأن يكون الشخص الأمثل عند الناس ، وليس من الأنبياء نبـــى واحـــد غـــيره حظى بكتابة سيرته مثله . إن محمداً وحده هو الذى حفظ له أتباعـــه كـــل كلمة من كلماته وكل عمل من أعماله بتمحيص وتدقيق قائمين على السند الموثوق به ، ثم تناقلت ذلك الأجيال من بعد جيلا بعد جيل بعنايـــة بالغـــة واعتزاز يليقان بأمانة مقدسة غاية التقديس** " (٣) .

٣ – وأما من حيث ارتفاع السبب الثالث ، فإن المعلوم للنـــاظر فـــى ديـــن الإسلام أن شريعته كاملة وأنه دين تام لا نقصان فيه ولا حاجة للبشرية إلـــى

---

(١) د. محمد عبدالله الشرقاوى / الإيمان / ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .
(٢) نقلا عن عبدالحميد صديقى : النبوة فى الإسلام / ص ٥٦ .
(٣) عبدالحميد صديقى / النبوة فى الإسلام / ص ٥٩ .

دين بعده ينظم لها حياتها ويضمن لها السعادة فى الــدار الأخــرة ، وذلــك مقتضى قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) المائدة / ٣ وقوله تعالى : (ماكان حديثا يفـــترى ، ولكــن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) يوســف / ١١١، وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشـــرى للمسلمين) النحل / ٨٩ .

وقد توفى رسول الله ﷺ بعد أن بين أصول الدين وفروعه ، باطنه وظاهره علمه وعمله [(١)] ، حتى لم تعد هناك حاجة لمزيد إذ يروى عن أبــى ذر قوله : "لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه فـــى الســماء إلا أذكرنا منه علماً " [(٢)] .

(١) ابن تيمية / معارج الوصول / ص ٣ .

(٢) الإمام أحمد / المسند (٥ / ١٥٣) .

الفصل الثانى

دعـــــاوى

حول نبــوة محمد ﷺ

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم
ويأبى الله إلا أن يتم نوره
ولو كره الكافرون
(سورة التوبة /٣٢)

علم أهل الكتاب من توراة موسى وكتب الأنبياء بعده أن نبياً سيظهر للعالم، وتحكى أسفارهم أن الرب قد أخبر موسى عنه : "سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به ، وأى رجل لم يسمع كلامى الذى يتكلم به باسمى فإنى أحاسبه عليه" (١) .

ثم لما ظهر يوحنا المعمدان (يحيى) وعيسى عرفوا أن النبى الآتى غيرهما لأن يوحنا وعيسى من بنى إسرائيل ولو كان الرب يقصد أحدهما لقال "من أنفسكم" أو "منكم" ، كما أن يوحنا وعيسى ليسا مثل موسى فى قدرته القيادية وفنون الحروب والنصر على الأعداء ، وبما أوتى من معجزات عظيمة ، كذلك لم يعاقب الله خصومها والمتمردين عليهما بالإبادة ، أيضا فإن يوحنا وعيسى لم ينسخا التوراة ، لكن النبى الآتى ناسخ لشريعة التوراة ، فله شريعة جديدة يجب اتباعها كما أخبر موسى فى بشارته "وأجعل كلامى فى فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به ، وأى رجل لم يسمع كلامى الذى يتكلم به باسمى فإنه أحاسبه عليه" .

لذلك عندما جاء محمد ﷺ برسالة الإسلام تأكدوا أنه النبى الآتى حقا بما أوتى من شريعة ناسخة لما قبلها ، وبما أوتى من قدرة شخصية وبدنية تجعله مثيلا لموسى ، فانتظروا أن ينحاز إلى جانبهم فيميزهم عمّن سواهم من البشر ، فلما وجدوه يترفع عن تمييز الناس على أساس من جنس أو عرق – وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا – راحوا ثيرون

(١) سفر التثنية (١٨-١٩)

حول شخصه الغبار ، وحول رسالته الشبهات والمزاعم ٠وإن كان شخصه قد نال حظا وافراً من الافتراءات والمطاعن التى تعد نوعاً من التردِّى الذى يلزم غضّ الطرف عنه لأنه يخرج عن نطاق البحث العلمى ٠

أما المزاعم والمطاعن فى النبوة فدارت حول محورين :

أولهما : التشكيك فى صحة رسالة النبى ﷺ ومصدرها الإلهى، وإنكار أن يكون النبى ﷺ رسولا من عند الله ، ومن ثَمَّ تخبطوا فى تفسير مظاهر الوحى التى كان يراها أصحاب النبى ﷺ وأرجعوها إلى صرع كان ينتابه ومنهم من أرجعها إلى تخيلات كانت تملأ ذهنه ، ومنهم من فسّرها بمرض نفسى ، وقد تولى الشيخ رشيد رضا تفنيد هذه الترهات حول مظاهر الوحى فى كتابه القيم الوحى المحمدى) ٠

الثانى : التشكيك فى قيمة ماجاء به ﷺ ، وإنكار أن يكون من عند الله ، وقد ترتب على ذلك إنكار كون القرآن من عند الله ، والزعم بأنه من تأليف محمد ﷺ تعلمه من الرهبان ، أيضا ترتب على ذلك الزعم بأن الإسلام ملفّق من تعاليم اليهودية والمسيحية ٠

وقد تلخصت دعاوى خصوم الإسلام فى تكذيب محمد ﷺ والطعن فى رسالته ، فى ست دعاوى هى :

الدعوى الأولى

عدم انقطاع شرع اليهود والنصارى

يلخص ابن كمونة اليهودى تلك الدعوى قائلا : "**كيف تصح شريعة محمد مع النقل المستفيض المتواتر عند ملّتى اليهود والنصارى أن شرعهما مستمر إلى يوم القيامة** " (١).

وينقض هذه الدعوى أن عقيدة المسيح المنتظر من أهم العقائد اليهودية وتحتل مكاناً عظيم الشأن فى عقل اليهودى ووجدانه ، وقد أصبحت من أركان الإيمان فى اليهودية من خلال البناء النظرى والتصور العقائدى الذى وضع أصوله وصاغ مبادئه فى شكلها النهائى الحبر العلامة موسى بن ميمون ، وذلك بوضعه المبادىء الثلاثة عشر التى جعلها أساساً للدين اليهودى (٢) .

وقد اختلفت الأشكال التى ينتظر اليهود ظهور المسيح فيها ، إذ يُنتظر فى أحد الأشكال التالية :

١- الملك

يستند اعتقاد اليهود فى قدوم المسيح المنتظر فى هذا الشكل على مجموعة من النصوص منها ماورد فى سفر إرميا : " ها إنها ستأتى أيام يقول الرب

---

(١) ابن كمونة اليهودى / تنقيح الأبحاث فى الملل الثلاث/ص١٠٨ .

Klaus Hock, Der Islam im Spiegel westlicher Theologie, S : 113.

(٢) **W.Bacher, Moses ben Maimoni :Sein Leben, seine Werke und sein Einfluss. S.112.**

أقيم فيها لدواد نبتاً بارا ، ويملك ملك يتصرف بفطنة ، ويجرى الحكم والبرّ فى الأرض ، فى أيامه يخلص يهوذا ، ويسكن إسرائيل فى أمان" (١).

وكذلك ماورد فى المزامير : " قال الرب لسيدى : اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطنا قدميك يمد الرب من صهيون صولجان عزتك فتسلط فى وسط أعدائك " (٢)

وقد نشأت تلك الفكرة على مايبدو نتيجة للفشل السياسى والعسكرى الذى لحق بمملكة بنى إسرائيل والذى انتهى بهم إلى السبى والتشريد ، فاتجه الفكر اليهودى إلى انتظار خلاص من نوع آخر يتمثل فى تدخل إلهى يدمر فيه العالم بكارنة كونية ليحل محله عالم آخر يقيم فيه الرب مملكته متخذا من القدس عاصمة ، ويحكم العالم من جبل صهيون ، وقد يصاحب ذلك أو يسبقه مجىء ملك يهودى ترسله السماء فيقود اليهود ويضعهم على قمة السلم البشرى (٣) .

وقد تحورت الفكرة فى العصر الحاضر فأصبحت الصهيونية تمثل الرداء الحديث للأمل المسيحا فى القديم ، إنه الأمل الذى يهدف إلى إعادة اليهودى لحياته القومية فى أرض فلسطين ، كما يهدف إلى إعادة إنشاء إسرائيل (٤).

٢ - الكاهن

(١) سفر إرميا (٢٣/٥) .

(٢) سفر المزامير (١١٠م١-٢).

(٣) M. Zobel, Gottes Gesalbter, S : 220.

(٤) د. منى ناظم/المسيح اليهودى/ ص٢٥٢-٢٥٣ .

ويستند هذا الشكل من أشكال المسيح المنتظر علـــى مجموعـة مـن النصوص، منها ماورد فى سفر زكريا : "هكـذا تكلـم ربُّ القـوات قـائلا هو ذا الرجل الذىاسمه النبت إنه ينبت من حيث هو ، ويبنى هيكل الـرب ، وهو يحمل الجلال ، ويجلس ويتسلط على عرشه ، والكاهن أيضا يكون على عرشه ، وسلام تام يكون بينهما " (١)

وما ورد في سفر المزامير : " لك الرئاسة يوم ولـدِتَ فـي بـهاء القداسة من الرحم ، من الفجر ولدتك أقسم الرب ولن يندم ، إن أنت كـاهن للأبد على رتبة ملكيصادق" (٢).

وتُرجع بعض الدراسات نشأة هذا الشكل إلـى نجـاح الثـورة التـى قامت بها أسـرة الحشـمونيين الكهنوتيـة وأسـفرت عـن إقامـة حكـم مستقل عن الإمبراطورية اليونانية استمر قرابة قرن من الزمان (٣) .

٣- النبى

يستند هذا الشكل من أشكال المسيح المنتظر إلـى نـص ورد بسـفر التثنية : "سأقيم لهم نبيـاً مـن وسـط إخوتـهم مثلـك ، وأجعـل كلامـى فى فمه ، فيخاطبهم بكل ما آمره به ، وأى رجل لم يسـمع كلامـى الـذى يتكلم به باسمى فإنى أحاسبه عليه "(٤)

وبعد تدوين هذا النص بستة قرون ورد نص آخر مـن نصـوص المجتمع الإيمانى الذى عاش فى قمران بالأردن ، جاء فيه : "على الأبرار أن

(١) سفر زكريا (٦/١٢-١٣).

(٢) سفر المزامير (١١٠/٣-٤).

(٣) د. منى ناظم / المسيح اليهودى /ص ١٣٠-١٣١ .

(٤) سفر التثنية (١٨/١٨-١٩) وانظر كذلك (١٨-١٥).

يحيوا بحسب اللائحة القديمة التى وضعت لتنظيم حياة المجتمع الأول ، وذلك حتى يأتى النبى والمسيحان من هارون وإسرائيل" [١]

ويشير النصَّان إلى أن النبى الآتى أو المنتظر ستكون لـــه سـلطة الأمر والنهى وأنه سيدعو إلى شريعة جديدة لــن تعجـب اليـهود وربمـا يحاول اليهود بسبب مخالفة شريعته الجديـــدة لشـريعتهم التمـرد عليـه ، لذلك يحذرهم الرب بـــأن مَــنْ لــن يتبــع النبــى الآتــى ويعمــل وفــق شريعته فإن المحاسبة والعقاب هما جزاء التمرد وعدم الاتباع .

ويؤكد واقع بنى إسرائيل التاريخى عقيدة انتظـــار النبــى الآتــى ، فالتاريخ الدينى لليهود يخبر عن ظهور عدد ممـــن ادعــوا النبــوة ولقيـت دعوتهم كثيراً أو قليلا من القبول والأتباع ، منهم – قديمـــا – كمــا يقــص يوسفس المؤرخ اليهودى فى كتابه (التاريخ اليهودى)، كل من [٢] :

– **ياشيل** ، وظهر فى بيت المقدس .

– **يوناتان النساج** ، الذى قاد مجموعة من اليهود عبر صحراء سيناء فـــى خروج إعجازى مثــل خـروج موســى ببنــى إســرائيل مــن مصــر ، كما يروى يوسفس.

– **تيوداس** ، وعبر بأتباعه نهر الأردن فى معجزة كمعجزة يشوع .

– **نبى السامرة** ، الذى ظهر عام ٣٦ بعد الميلاد زمن حكم بيلاطس .

---

١) **E.Lohse, Die Texte aus Qumran, 1QS9, 10-11.**

Josephus, juedische Altertuemer (19,12-78, 4.1-20, 501) (٢)

وفى التاريخ الحديث ظهر (ناتان) الذى أعلن نبوته عبر وحى إلهى عام ١٦٦٨م، وقد اتخذه نبياً وداعيا له المسيح الدعى شيتاى تسفى Sabbatai Zwi [١] .

وكذلك عندما ظهر كل من عيسى ومحمد عليهما السلام فإن نفراً من اليهود قد اتبعوا رسالة الإسلام ودعوة عيسى ، واليهود وإن لم يدخلوا جميعا فى دعوة يوحنا أو المسيح أو فى دين الإسلام ، فإن ذلك راجع إلى أنهم حرّفوا وظيفة النبى المنتظر ، فصبغوها صبغة عنصرية تجعل من مهمة النبوة خلاص الشعب اليهودى وحمله الى قمة السلم البشرى ، وهو مالم يَدْعُ إليه واحد من الأنبياء الثلاثة ، بل كانت دعوتهم على العكس من ذلك ؛ فيوحنا قد دعاهم إلى التوبة من ذنوبهم الكثيرة والخلاص من أسر الخطيئة المتأصلة فى نفوسهم وتطهير أيديهم المصبوغة بدماء بنى البشر من الأبرياء والمسيح أخبرهم أن مملكته ليست من هذا العالم ، أما محمد ﷺ فقد حمل عليهم بسبب تحريفهم كلام الله والاجتراء على الذات الإلهية ، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم إنا قتلنا المسيح ابن مريم ، وافترائهم على أمه .كما أنه قد دعاهم إلى دين الإسلام الذى يستوى فيه الأبيض والأسود ، ولايتفاضل فيه أبناء جنس على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وبالنسبة للمسيحية فإنها تستند فى تلك الدعوى على أن المسيح هو كلمة الله التى أصبحت بشراً ، بها قال الله فيه كل شىء ولن تقال بعده كلمة أخرى [٢] :

---

(١) Gershom Scholem, Sabbatai Zwi, S:247

(٢) Katechismus der katholischen Kirche, S:58.

فهذا ماقرره القديس يوحنا الصليب من معلمى وزهاد الكنيسة فى أسبانيا القرن السادس عشر ، وذلك خلال شرحه قول بولس فى رسالته إلى العبرانيين : " إن الله بعدما كلم الآباء قديما بالأنبياء مرات كثيرة بوجوه كثيرة ، كلمنا فى أخر الأيام هذه بابنٍ جعله وارثا لكل شىء وبه أنشأ العالمين [١].

إذ قال معقباً : منذ أرسل الله لنا ابنه الذى هو كلمته لم يعد لديه كلمة أخرى يعطيها ، فقد قال كل شىء على وجه خاص فى هذه الكلمة ، لأن كل ماتكلم به للأنبياء قطعة قطعة قاله الآن كله فى ابنه الذى إن سألنا بعده الله رؤية أو وحيا فإن ذلك لن يكون فقط حماقة بل يكون سبّاً لله ذاته [٢]

وما من شكٍّ فى أن عبارة يوحنا الصليب تؤدى إلى تعطيل الرب عن صفة الكلام ، فإذا أضفنا إلى ذلك الحقائق التالية :

١- أن نبى الجليل عيسى الناصرى لم يقل قط أو يُشِر - من بعيد أو من قريب - إلى أنه خاتم الأنبياء واللبنة الأخيرة فى بناء الوحى ، بل أشار فى وضوح إلى معلم ومرشد آت لقيادة البشرية: "إنه خير لكم أن أذهب فإن لم أذهب لا يأتيكم الباراقليط أما إذا ذهبت فأرسله إليكم ، وهو متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والدينونة .. فمتى جاء هو أى روح الحق

---

(١) رسالة بولس الى العبرانيين (١/١-٢) .

(٢) Katechismus der katholischen Kirche, S:57.

أرشدكم إلى الحق كله ، لأنه لايتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث" (١).

وتنطبق الصفات التى حددها عيسى لهذا المرشد المعلم على محمد ﷺ بدءاً من اسم المرشد وانتهاء بخصائصه وصفاته كما سيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن دلائل النبوة .

٢- دعوى ختم النبوة والوحى بعيسى تهدم بناء النبوة فى المسيحية وتبطل دعوى استناد رسل المسيح الاثنى عشر ، والأنبياء ، والمعلمين ، إلى الوحى وروح القدس فى عملهم وتبشيرهم .

٣- تقرُّ الكنيسة بالحاجة إلى نوع من الوحى تسميه "الوحى الخاص" وهو ماتقتضيه ضرورة استكمال الوحى العام بتفسير غير المفهوم منه ، وحلِّ المشكلات والمعضلات التى تجدّ فى أثناء مسيرة المسيحية مما لايوجد حلٌّ لها فى ثنايا الوحى العام .

٤- لاتجد نصّاً فى كتاب مقدس بخلاف القرآن الكريم فى العالم يقطع بختم النبوة ويحددها فى شخص المرسل بهذا الكتاب .

تبين لنا أن تلك الدعوى موجهة فى الأساس ضد نبى الإسلام وأنها لاتقوم على أية أدلة أو براهين ، ولاتستند إلى حجة أو سلطان ، اللهم إلا سلطان الرفض المطلق كما يبدو من كتاب أصول العقيدة الصادر عن الفاتيكان مؤخرا ، حيث جاء فيه :

(١) إنجيل يوحنا (٧/٦١-١٤).

" إن العقيدة المسيحية لاتستطيع أن تقبل (تجيز) أى نوع من الوحى يقابل أو يفوق الوحى الذى تمَّ فى المسيح ، كالوحى الذى تأسّست عليه بعض الديانات والطوائف غير المسيحية" (١).

(١) **Kathechismus der katholischen Kirche, S:57.**

الدعوى الثانية

ليست هناك حاجة إليه

مضمونها أن الشرائع شريعتان : شريعة عدل وشريعة فضل ، لأن البارى تعالى عدل وجواد ، فوجب أن يظهر عدله على خَلْقه ، فأرسل موسى إلى بنى إسرائيل ، فوضع شريعة العدل ، وأمرهم بفعلها حتى استقرت فى نفوسهم . ولما كان الكمال الذى هو الفضل لايمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال وجب أن يكون هو تقدست أسماؤه الذى يضعه ؛ لأنه ليس شىء أكمل منه ، ولأنه جواد فقد وجب أن يجود بأجل الموجودات وليس فى الموجودات أكمل من كلمته ، ولذلك وجب أن يجود بها ، فيتخذ ذاتا محسوسة يظهر منها قدرته وجوده. ولما لم يكن فى المخلوقات أجلُّ من الإنسان اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة مريم البتول.

وبعد هذا الكمال مابقى شىء يوضع ، لأن جميع ماتقدمه منقصة ، وما يأتى بعده يحتاج إليه ، ويأخذ منه ، فهو دونه وأدنى منه ، وهو فضل لايحتاج أحد إليه [1].

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى :

- رسالة بولس الأنطاكى/ص : ٢٦-٢٥ .

- شرح يوحنا بن مينا من كبار كتبة الأقباط فى القرن الثانى عشر ، لمقالة حنين بن إسحاق الطبيب (كيفية إدراك حقيقة الديانة) ضمن (مباحث فلسفية دينية لكبار الكتبة النصارى) نشرة بولس سباط/ص١٩٦-١٩٨ .

وتفنيد تلك الدعوى بوجوه :

أحدها :[١] أن الشرائع ثلاث ، شريعة عدل فقط ، وشريعة فضل فقط وشريعة تجمع العدل والفضل ، فتوجب العدل وتندب إلى الفضل ، وهذه أكمل الشرائع الثلاث ، وهى شريعة القرآن الذى يجمع بين العدل والفضل .

مع أننا لاننكر أن يكون موسى - عليه السلام - قد أوجب العدل وندب إلى الفضل ، وكذلك المسيح أيضا أوجب العدل وندب إلى الفضل . ومن يقل : إن المسيح أوجب الفضل وحرَّم على كل مظلوم أن يقتص من ظلمه أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان ، فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين .

والصواب أن يقال : إن ذكر العدل فى التوراة أكثر ، وذكر الفضل فى الإنجيل أكثر والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال . إذ بيَّن القرآن أن السعداء من أهل الجنة نوعان : أبرار مقتصدون ومقرَّبون سابقون وتحصل الدرجة الأولى بالعدل ، وهى أداء الواجبات وترك المحرمات ، والثانية لاتحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات ، وترك المحرمات والمكروهات .

- مقالة (المواضع التى فيها الخلاف بين المسلمين والنصارى - ص : ٥٥-٥٩)
- مقالة (المواضع التى فيها اختلاف بين اليهود والنصارى لأبى على عيسى بن إسحاق بن زرعة المنطقى ، من كبار علماء الملة اليعقوبية المتوفى سنة ١٠٠٧م ، ضمن مباحث فلسفية دينية لكبار الكتبة النصارى).

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٢٩-٢٣٤).

وهذا من تمام كمال شريعة القرآن التى تجمع بين العدل والفضل يقول تعالى : (وإن عَاقَبْتم فعاقِبوا بمثل ماعُوقِبتم به) النحل /١٢٦ ، فهذا عدل ، ثم قال: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) النحل/ ١٢٦ فهذا فضلى ، ويقول تعالى : (والجُروح قصَاص) المائدة/٤٥، فهذا عدل ، ثم قال : (فمن تَصدَّق به فهو كفَّارةٌ له) المائدة/٤٥ . هذا فضل وقال تعالى : (وجزاء سّيئةٍ سّيئةٌ مثلها) الشوري / ٤٠، فهذا عدل ، ثم قال : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) الشوري /٤٠ ، فهذا فضل .

الثانى [1]: أن الناس – فى أمر الله ونهيه – على قولين مشهورين :

أحدهما : أنه يرجع إلى محض المشيئة ، ولا اعتبار فيه لمصلحة الخلق .
وثانيهما:أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لأمر الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه٠كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الانبياء/١٠٧ ، وقال تعالى : (فإمّا يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) طه/١٢٥ .
فعلى القول الأول ليس لأحد أن يسأل عن حكمة إرسال الرسل ، وعلى القول الثانى ففى إرسال النبى ﷺ من الحِكَم والمصالح أعظم مما كان فى موسى والمسيح عليهما السلام ، إذ حصل به من صلاح العباد فى المعاش والمعاد أضعاف ماحصل بإرسالهما ، ولم تكن شريعة التوراة فى الكمال مثل شريعة القرآن .

(١)ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٣٤-٢٣٦) ٠

ففى القرآن من ذكر المعاد والاحتجاج له ، ووصف الجنة والنــار ، وذكر قصص الأنبياء ، وذكر أسماء الله الحسنى وصفاته وملائكته وأصنافهم ، والجن وخلقهم، وتقرير التوحيد بالأدلة ، وذكــر أديــان أهــل الأرض ، ومناظرة المخالفين للرسل وإقامة البراهين على أصــول الديــن ، وتحليــل الطيبات وتحريم الخبائث ، وقبول الديَّة فى الدماء . وغير ذلك الكثير مما لم يذكر فى التوراة ، أما الإنجيل فليس شريعة مستقلة ، بل أكثره إحالة علــى شريعة التوراة ، وعامة ما امتاز به الزهــد المســتحب ومكــارم الأخــلاق المستحسنة وتحليل بعض المحرمات وهذا كله فى القرآن وهو فــى القــرآن أكمل .

الثالث[١] : أن شريعة موسى وعيسى – عليهما السلام – تكون كافيــة إذا كانت محفوظة معمولا بها ، لكن الأمر ليس كذلك ، إذ قد درس كثير مــن معالمها، وبُدّل أكثر منه ، مما أدى إلى اختلافهم فى أمــر المســيح وغــيره اختلافا عظيما كما قال تعالى: (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقــهم فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العدواةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامــة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) المائدة /١٤ .

فحين بُعث محمد ﷺ كان الناس أحوج مايكون إلى رسول فــهم: إما أميون لا كتاب لهم ، يشركون بالرحمن ويعبدون الأوثان ، وإمــا أهــل كتاب قد بّدلوا معانيه وأحكامه ، وحرّفوا حلاله وحرامه ، ولبّسُوا حقه بباطله فبعث الله – تبارك وتعالى – محمداً ﷺ بالكتاب الذى أنزله عليه مصدقــا

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٣٨-٢٣٩) .

لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فميَّز به الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والغيّ من الرشاد . قال تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ، لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قُل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض ومابينهما ، يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير)المائدة /١٥- ١٩ .

الرابع [١]: أن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة ، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين ، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا ، كما قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس) البقرة /١٤٣

وقال فى وصف أمة محمد ﷺ : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) الفتح /٢٩، وقال أيضا : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) المائدة /٥٤ فوصفهم بالرحمة للمؤمنين والذلة لهم ، والشدة على الكفار والعزة عليهم .

---

(١)ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٤٠-٣٤٣).

وهذا من كمال الشريعة الإسلامية التى تجمع بين اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما فى الإنجيل ، وبين الشدة والجهاد وإقامة الحدود أعظم من التوراة ، ولهذا يقال : بُعِثَ موسى بالجلال ، وبُعِثَ عيسى بالجمال ، وبُعِثَ محمد بالكمال .

الخامس(١) : أن نعم الله على عبادة تتضمن نفعهم والإحسان إليهم ، وذلك نوعان :

أحدهما : أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم ، وذلك كالرزق الذى لولاه لماتوا جوعا وكالنصر الذى لولاه لأهلكهم عدوهم .

الثانى : النعم التى يحصل بها من علو الدرجة ما لايحصل بدونها .

وقد حصل بإرساله ﷺ هذان النوعان من النعمة ، فالخلق كانوا محتاجين إلى إرساله من هذين الوجهين إذ كان الناس بدونه جهالا ضليين أمِّيُّهم وأهل الكتاب منهم ، فلم يكن قد بقى من أهل الكتاب أتباع المسيح من هو قائم بالدين الذى يوجب السعادة عند الله فى الأخرة ، بل كانوا قد بدَّلوا وغَيَّروا .

وأيضا فلو قُدِّر أنهم لم يبدلوا ، ففى إرساله من كمال النعم وفواضلها وعلو الدرجات فى السعادة مالم يكن حاصلا بالكتاب الأول ، والذين ردّوا رسالته هم ممّن قال الله فيهم : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) إبراهيم /٢٨.

(١) ابن تيمية /الجواب الصحيح (٣/٢٤٣-٢٤٤).

السادس[١] :أن سائر طوائف أهل الأرض تقر أن محمدًا ﷺ دعا أهل الأرض إلى خير مما كانوا عليه :

فأهل الكتاب يسلّمون لنا أن من سوى أهل الكتاب انتفع بنبوة محمد ﷺ منفعة ظاهرة ، بل كانوا أحوج الناس إلى رسالته ، واليهود يسلمون لنا حاجة النصارى إلى الإسلام ، والنصارى تسلم لنا حاجة اليهود إليه ، واعترف الفلاسفة أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه .فإذا كانت شهادة الطائفة لنفسها غير مقبولة فى حال خصومتها للإسلام ، وشهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم ؛ فتكون هى شهادة أهل الأرض جميعا أن النبى ﷺ قد دعاهم إلى خير مما كانوا عليه .

السابع[٢] : أن النصارى معترفون بانتفاع المشركين به غاية الانتفاع ، بإقامة توحيد الله ودينه فيهم ، وأنه عظم المسيح وأمه ، وردّ على اليهود قولهم فيه وافتراءهم على أمه ، وذلك من أعظم الفوائد وأجل المقاصد وأعظم نعم الله على عباده .

ثم أنه – مع ذلك – قد قال : إن الله أرسله وأمره بذلك ، فإن كان كاذبا فالكاذب المفترى على الله من شر الكفار ، ومن كان كذلك لا يحصل منه هذا الخير العظيم ، أما من حصل منه هذا الخير والعلم والهدى وما فيه صلاح الدنيا والآخرة فقد وجب أن يكون من خير أهل الأرض ، وأحقهم برضوان الله .

---

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٤٤-٢٤٥).

(٢) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٤٥ -٢٤٦)

الثامن[١] : أن الجواد الذى يحسن إلى الناس ، ليس هو الذى يلـــزم الناس بترك حقوقهم ، ومقتضى كلام النصارى أن شريعة الإنجيل ألزمــــت الناس بترك حقوقهم ، وعدم انتصاف مظلوم من ظالمه .

ولهذا فليس عندهم حكم عدل يحكمون به بين الناس ، بـــل الحكـــم لديهم نوعان : حكم الكتبة ، وليس فيه إنصاف المظلوم من الظالم ،والثـانى : حكم الملوك ، وهـــو ليـــس شـــرعا مـــنزلا ، بـــل بحســـب آراء الملـــوك

ونتيجة لتلك الازدواجية غير العادلة نجدهم يردون الناس إلى حكـــم الإسلام فى الدماء والأموال . فالدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه ، فالحاكم الذى يحكم بين الناس متى حكم على المظلـــوم بترك حقه كان حكمه بالظلم لا بالعدل .

ولو أمرنا كل ولىٍّ مقتول أن لا يقتص من القاتل ، وكـــل صـــاحب دين أن لا يطالب غريمـــــه بـــل يدعـــه علـــى اختيـــاره ، وكـــل مشـــتوم مضروب أن لاينتصف من ظالمه، لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم ، وظلـــم الأقوياء الضعفاء ، وفسدت الأرض لقوله تعالى : (ولـــولا دفـــع الله النـــاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) البقرة / ٢٥١.

فلابدَّ من شرع يتضمن الحكم بالعدل ، ولابد – مع ذلك – من ندب النـــاس إلى العفو دوالأخذ بالفضل .

التاســع[٢] : أن العـــدل والفضـــل لايشـــرعه إلا الله ، فشـــريعة التوراة لم يشرعها إلا الله ، وشـــريعة الإنجيـــل لـــم يشـــرعها إلا الله عـــز

(١)ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٤٦ –٢٥٠)

(٢) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٥٠ –٢٥١)

وجل ، على عكس مايرى النصارى أن العدل وضعه موسى ، وأن الفضل وضعه أكمل الكمال الذى هو الله . فشريعة العدل أحق بأن تضاف إلى الله من شريعة الفضل ، فإن الأمر بالإحسان والعفو يحسنه كل واحد ، أما شريعة العدل والحكم بين الناس به فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس . فكيف يقال إن الذى يأمر بشرع الفضل هو الله دون الذى يأمر بشرع العدل ؟ والله - تعالى - أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى :(ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوى عزيز)الحديد / ٢٥.

ومن المعلوم أن أمر المسيح - عليه السلام - للمظلوم بالعفو عن الظالم ليس فيه مايدل على أنه من الواجب الذى مَنْ تركه استحق الذم والعقاب بل هو من المرغب فيه الذى مَنْ فعله استحق المدح والثواب ، وموسى - عليه السلام - أوجب العدل الذى من تركه استحق الذم والعقاب . وحينئذ فلا منافاة بين إيجاب العدل وبين استحباب الفضل ،لكن إيجاب العدل يقترن به الترهيب والتخويف فى تركه ، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله .

فعُلم من ذلك أن شرع الإنجيل لم يناقض شرع التوراة ، إذ كان فرعا عليها ومكملا لها ، والزعم أن شرع الإنجيل شرعه الله دون شرع التوراة كلام من هو أجهل الناس وأضلهم .

الدعوى الثالثة

لم تُبَشِّر به النبوَّات

ومضمونها أن محمدا ﷺ لم تبشّر به النبوّات بخـــلاف المســـيح عليه السلام – مثلا – فإنه بشّرت به النبوّات ، وقد أخبر المســـيح أنـــه لانبى بعده(١).

ومقتضى تلك الدعوى أمران :

أحدهما : أنه لايكون نبيا حتى يُبَشَّر به .

---

(١) يبدو أن تلك الدعوى كانت من الأخبار الشائعة علـــى ألســـنة علمـــاء اليـــهود والنصارى ، إذ لم أعثر على مضمونها فيما تيسر لى الوقوف عليه مـــن كتبـــهم القديمة ، اللهم سوى احتجاج ابن كمونة بعدم صحة استدلال المسلمين بما ورد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – من بشارات فى الكتاب المقدس (تنقيـــح الأبحـــاث ص٩٤-٩٨)، لكن يمكنك أن تراجع فيها :

- العامرى /الإعلام بمناقب الإسلام /ص ٢٠١-٢٠٨ .
- أبا عبيدة الخزرجى/ مقامع هامات الصلبان /٢١٤ .
- عليا بن ربن الطبرى/ الدين والدولة /ص٢٢ .
- نصراً بن يحيى المتطبب/ النصيحة الإيمانية / ص١٣٨ .

أما المصادر الحديثة فتجعل من هذه الدعوى أهم المطاعن فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، راجع :

- Adel Theodore Khoury, Der theologishe Streit der Byzantiner mit dem Islam, S:36.
- Klaus Hock, Der Islam in Spiegel Weslicher Theologie, S:112.

والثانى : أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح – عليه السلام – اختص به ويقتضى الوجهان الإجابة عنهما ؛ لأنه ما من طريق تُعرف به نبوة نبى إلا ومحمد ﷺ تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل .

فيُجاب عن الأول :

بأنه ليس من شرط نبوة كل نبى أن يبشر به مَنْ قبله ، إذ النبوة ثابتة بدون ذلك لا سيما نوحاً وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء لم يبشر بهم من قبلهم ، وكذلك عامة الأنبياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل لم يتقدم لهم بشارات كدواد وأشعيا وغيرهما، كما أن موسى وهو مثال النبوة فى بنى إسرائيل لم يبشر به أحد قبله .

أما الثانى فالجواب عنه من طريقين(١) :

الأول : أن العلم بنبوة محمد والمسيح لاتتوقف على العلم بأن مَنْ قبلهما بَشّر بهما، بل طرق العلم بالنبوة متعددة ، فإذا عرفت بطريق من الطرق ثبتت عند مَنْ علم ذلك ، وإن لم يُعلم أن مَنْ قبله بشّر به .

الثانى: أن الأنبياء بشّرت بمحمد ﷺ وعلى وجه الخصوص المسيح عيسى ابن مريم ، وذلك دليل مستقل على نبوته وعَلَم عظيم من أعلام رسالته وتلك البشارات فى الكتاب الذى جاء به محمد ، وفى الكتب التى سبقته لقوله تعالى : (وإذ قال عيسى ابن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)الصف/ ٦، وقال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى

(١) ابن تيمية /الجواب الصحيح (٣/٢٧٥-٢٨٢).

يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) الأعراف / ١٥٧ . وقال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) الفتح / ٢٩.

وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)البقرة / ١٤٧ الأنعام / ٢٠ فى موضوعين من القرآن ، وقال تعالى(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) البقرة / ٨٩وقال تعالى (أفغير الله ابتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) الأنعام / ١١٤، قال تعالى(أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) الشعراء / ١٩٧، وقال تعالى : (كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) الرعد / ٤٣.

وقال تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) المائدة / ٨٣، وقال تعالى : (إن الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) الإسراء / ١٠٧ - ١٠٨، وقال تعالى : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) يونس / ٩٤

وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم بـــه مؤمنـــون ، وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مُســـلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحســـنة الســيئة وممـــا رزقناهم ينفقون)القصص/٥٢-٥٤

والعلم بأن الأنبياء قبل محمد ﷺ بشرت به يُنال من وجوه :

أحدها [١]: مافى الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب مِن ذِكْره .

الثانى[٢] : إخبار من وقف على تلك الكتب ممّن أسلم وممّن لــم يُســلم بمـــا وجدوه من ذِكْره بها ، وذلك كإخبار الأنصار أن جيرانهم من أهـــل الكتـــاب اليهود كانوا يخبرون بمبعثه وأنه رسول الله ، وأنه موجود عندهم ، وأنـــــهم ينتظرونه ، وكان ذلك مما دعا الأنصار إلى سرعة الإيمان به ، ومثل ذلـــك ما تواتر عن إخبار هرقل ملك الروم ، والمقوقس حاكم مصر ، والنجاشـــى ملك الحبشة عن وجوده فى كتبهم .

الثالث[٣]: إخبار النبى ﷺ بذلك فى القرآن مرة بعـــد مـــرة أو استشـــهاده بأهل الكتاب ، وإخباره بأنه مذكور فى كتبهم ، مما يـــدل علـــى أنـــه كـــان موجودا فى كتبهم ، فلو لم يُعلم أنه مكتوب عندهم لامتنع أن يخبر بذلك مـــرة بعد مرة ، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه .

فهذا لايفعله عاقل فضلا عمّن كان من أعقل أهل الأرض ، والذى أقام ذلـــك الأمر العظيم الذى لم يحصل لأحد بعده ولا قبله .

---

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٨٢)
(٢)ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/ ٢٨٢ -٢٩٢)
(٣) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/٢٩٢)

الرابع[١] : أن الأعلام والبراهين والدلائل قد قامت على صدقه وثبوت نبوته وهو قد أخبر أنه مكتوب فى الكتب المتقدمة ، وأن الأنبياء بشروا به ، فعلم أن الأمر كذلك حق وصدق .

الخامس[٢]: من المعلوم أن ظهور دين محمد ﷺ فى مشارق الأرض ومغاربها أعظم حادث فى الأرض ، وانتشاره ودوامه لم يعرف له مثيل . فلو كان ذلك المدعى للنبوة كاذبا فلا بد أن يخبر به الأنبياء فإنهم أخبروا بظهور المسيح الدجال تحذيرا للناس من فتنته وكذبه ، فلو كان مايدعيه المكذِّب لمحمد ﷺ حقا ، وأنه كاذب ليس برسول لكانت فتنته أعظم من فتنة الدجال؛ لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف من يتبع الدجال ، وكان التحذير منه أولى من التحذير من الدجال ، ولو كان ذلك المدعى للنبوة صادقا ، فالبشارة بالإيمان به من أولى مايبشّر به الأنبياء من المستقبلات فعلى كلا الوجهين لابد أن يكون فى الكتب ذكره .

ولمّا كان ذكره فى كتب أهل الكتاب قد ثبت بالمدح والثناء ، علم بذلك أن الأنبياء المتقدمين ذكروه بالمدح والثناء ، ولم يذكروه بذم ولاعيب . وكل من ادعى النبوة ومدحه الأنبياء وأثنوا عليه لم يكن إلا صادقا فى دعوى النبوة ، إذ يمتنع أن يثنى الأنبياء على من يكذب فى دعوى النبوة { ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه }الأنعام / ٩٣ ونضيف إلى ماسبق من استدلالات أن الزعم بإخبار المسيح عليه السلام أنه لانبيَّ بعده دعوى ينقضها بناء النبوة فى المسيحية كما سبقت الإشارة إلى ذلك

(١)ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣/ ٢٩٢ - ٢٩٣)
(٢)ابن تيمية / الجواب الصخيح (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٩)

كذلك ينصُّ العهد الجديد على أن عيسى – عليه السلام – قد بيَّن ووضح لليهود أن "المنتظر" سيأتي من بعده ، ولن يكون من آل داود ؛ لأن داود دعاه سيداً له .يقول متى : "ولما اجتمع الفريسيون سألهم يسوع قائلا : ماذا يظهر لكم فى المسيح ؟ ابن من هو ؟ قالوا : ابن دواد .فقال لهم :كيف دعاه داود بالروح ربا ؟ فقال : الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطنا لقدميك ، فإذا كان دواد قد دعاه ربا فكيف يكون ابنه؟ "(١).

وقد حددت التوراة أوصاف هذا "المنتظر" ، وبينَّ علماء لمسلمين، والمهتدون إلى الإسلام والمنصفون من أهل الكتاب ، أن أوصاف "المنتظر" تدل على محمد ﷺ وليس عيسى عليه السلام (٢)

(١) متى (٢٢/٣١ - ٣٥)
(٢)راجع تفصيل ذلك فى :
- الدين والدولة فى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لعلى ابن ربن الطبرى.
- إفحام اليهود للسموأل بن يحيى المغربى .
- النصيحة الايمانية /لنصر سعيد المتطبب .
- مقامع هامات الصلبان /لأبى عبيدة الخزرجى .
- تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب /القس أنسلم (عبد الله الخزرجى)
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسى .
- هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى /لابن قيم الجوزية.
- الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام /القرطبى .
- الأجوبة الفاخرة/للقرافى الصنهاجى.
وسوف نعرض لموضوع البشارات فى الفصل الثالث إن شاء الله .

الدعوى الرابعة

لم يؤيد بالمعجزات

خلاصة تلك الدعوى أن القرآن الذى جاء بـــه النبـــى ﷺ يخلـــو من ذكر الآيات والمعجزات التى تؤيد صاحبه ومن أتى به [1] .

ومع أنه لا حاجة فى تصحيح خبر الأنبيـــــاء إلـــى ذكـــر آياتـــهم ومعجزاتهم فى كتبهم[2] إلا أن الأمر يقتضى الرد على دعواهم لإلـــزام مـــن لايؤمن إلا بما فى القرآن من آيـــــات كـــالمذكورة لموســـى وعيســـى فـــى التوراة والإنجيل[3] :فيقال إن تلك الدعوى واهية إذ ليس من شـــــرط النقـــل المتواتر أن يكون فى القرآن، بل تواتر عنه من شريعته ماليس فى القـــرآن ، وهو من الحكمة التى أنزلها الله عليه. وكذلك تواتر عنه من دلائل نبوته مـــا ليس فى القرآن ، وقد قال تعالى:(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) النســـاء /١١٣فالحكمة منزلة عليه ، وهى منقولة فى غير القرآن . [4]

---

(١) تيودور أبو قرة /ميمر فى وجود الخالق والدين القويم/ص٨٥ ٠

وراجع : عليا بن ربن الطبرى / الدين والدولة /ص٢٣ ٠

- Adel Theodore Khoury, Der theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam,S:38-39

(٢) على بن ربن الطبرى /الدين والدولة /ص٢٤ ٠

(٣) ابن تيمية /الجواب الصحيح (١٢٨/٤)٠

(٤) ابن تيمية /الجواب الصحيح (١٢٨/٤)٠

ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته فى القرآن قصة الفيل قال تعـــالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهـــم فـــى تضليـــل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلـــهم كعصـــف مأكول) الفيل/ ١-١٠إذ سار النصارى من أهل الحبشة بجيش عظيم ليـهدموا الكعبة لمّا أهان بعض العرب كنيستهم باليمن ، فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيـم كنائسهم فأرسل الله عليهم طيرا أهلكت عامتهم ، وكان ذلك عام مولد النبـــى ﷺ . فهذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت ؛ لأنهم حينئذ كانوا مشركين ، ودين النصارى خير من دينهم ، بل كانت لأجل البيت وحفظـــه ، أو لأجـــل النبى ﷺ الذى ولد فى ذلك العام عند البيت ،فأى الأمرين كان فـــهو مـــن دلائل نبوته ؛ إذ لايحجُّ البيت ولايصلى إليه أحد من أهـــل الملـــل إلا أمـــة محمدﷺ . وإذا كان هذا البيت عند الله خيراً من كنائس النصارى ، حتـــى أن الله أهلك أهل الكنائس لمّا أرادوا تعظيمها وإهانة البيت ، علم أن دين أهل البيت الذين يتخذونه قبلة لهم خير من دين النصارى ، وذلك يستلزم صـــدق نبى أهل هذا البيت [1] .

ومن آياته الظاهرة فى القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرســـا شديدا وشهبا بخلاف ماكانت العادة جارية به ، قال تعالى: (قل أوحى إلى أنه استمّع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا بـــه ولن نشرك بربنا أحدا }إلى قوله : {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرســـا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شـــهابا

---

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (١٢٣/٤)٠

رصدا ، وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشـــدا) الجن ١-١٠.

وهذا الأمر قد رآه الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ، فلم ينكـره منـهم أحد ، ولو لم يكن كذلك كانوا كذبوا به خصوصا وقد سمع القـرآن ألـوف مؤلفة شاهدوا أحوال السماء ، وكان عامتهم مكذبين للنبى ﷺ لكن لم ينكـر منه تلك الحال أحدهم [١] .

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٤/١٢٣-١٢٤).

الدعوى الخامسة

لم يُرْسَل إلا إلى العرب

يزعم أهل الكتاب أن محمدا ﷺ لم يُرْسَل إليهم بل أرسل إلى العرب خاصة ، وأنه لم يَدْعُ صلى الله عليه وسلم منذ بُعث إلى أن مات إلا قومه [1] .

ويستدلون على ذلك بآيات من الكتاب العزيز تنص على أن القرآن كتاب عربى ، ليس بلسان الأمم غير العربية (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) يوسف / ٢، وكذلك الآيات الدالة على دعوته ﷺ قومه الذين لم يأتهم نذير من قبل كقوله تعالى: (لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون٠٠) السجدة / ٣ وقوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) الشعراء / ٢١٤. فهذه الآيات تدل فى زعمهم على أن النبى ﷺ أرسل فقط إلى العرب الجاهلية الذين لم يأتهم من نذير قبله ، وأنه ﷺ لم يُلْزم اليهود ولا النصارى اتباعه وقد أتاهم رسل من قبله خاطبوهم بألسنتهم وسلّموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم ، وعلى ذلك فقوله تعالى :(ومن يبتغ غير الإسلام

---

(١) رسالة بولس الأنطاكى إلى أحد المسلمين /ص١٥-١٦ ٠
- ابن العسال / الصحائح فى جواب النصائح /ص٣٧-٣٨ ٠
- السير وليم مور /الخلافة ، الأمير كيتانى / حوليات الإسلام٠
نقلا عن السير توماس أرنولد/الدعوة إلى الإسلام /ص٥٠ ٠

دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسـرين) آل عمـران / ٨٥، يُراد منه حسب مقتضى العدل قوم محمد ﷺ من العرب الجاهلية فقط [١].

والرد على تلك الدعوى فى ثلاثة محاور :

أولا : رفض احتجاج أهل الكتاب بالقرآن أو بشىء مما جاء به محمد ﷺ .

ثانيا : تفسير الآيات التى احتُجَّ بها تفسيرا صحيحا يبطل الاحتجاج بها

ثالثا : مجموعة الأدلة على عالمية الإسلام .

وذلك على النحو التالى :-

أولا : رفض احتجاج أهل الكتاب بالقرآن

إذ لايجوز احتجاج أهل الكتاب بشىء من القـرآن أو بمـا جـاء بـه محمد ﷺ على صحة مايخالفون فيه المسلمين ؛ فلا يجوز أن يحتـجَّ مـن يكذِّب محمدا ﷺ فى كلمة واحدة مما جاء به بمجرد المنقول عنـه ، فمـا أخبرت به الأنبياء لايمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض سواء علـى تقديـر صدقهم أو كذبهم [٢].

---

(١) رسالة بولس الأنطاكى /ص١٦ ٠
- الصحائح فى جواب النصائح /ص٣٨ ٠
(٢) ابن تيمية /الجواب الصحيح (٣٢/١)٠

ثانيا : تفسير الآيات التى احتجوا بها على وجهها الصحيح

١- فكون القرآن أنزل باللسان العربى إنما لأن الكتب الإلهية لا تنزل إلا بلسان القوم الذين اختصهم الله بتلك الكتب ، ثم تبلغ بعد ذلك إلى من لايعرف تلك اللغة [١].وهذا ماكان من أمر المسيح - عليه السلام - فقد كان لسانه عبريا وكذلك ألسنة الذين اتبعوه أولا ، ثم إنهم على حد قولهم أرسلوا إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم بلغاتهم ماقاله المسيح[٢].ونصارى العرب وكذلك يهود يثرب فى زمانه ﷺ فهموا القرآن بدون ترجمة مع أن أصل ألسنتهم فارسى أو رومى أو قبطى أو تركى أو هندى ، كما أن الذين استدلوا على عروبة الإسلام بتلك الآيات قد فهموا من القرآن مافهموا بدون ترجمة أو واسطة .

كما أن نزول القرآن باللسان العربى يتضمن إنعاما من الله على عباده ؛ لأن اللسان العربى أكمل الألسنة ، وأحسنها بيانا للمعانى ، ولإقامة الحجة به على العرب الذين يعرفون معانيه قبل غيرهم[٣].

٢- وكونه ﷺ أرسل للعرب لايمنع إرساله ﷺ إلى اليهود والنصارى من غير العرب ، كما أرسل المسيح بزعمهم رسله من الحواريين إلى الأمم من غير بنى إسرائيل ، أما زعمهم امتناع إرساله إليهم لمجيء الرسل إليهم قبل محمد ﷺ فزعم باطل ، فالمعلوم أن بنى إسرائيل كانوا أكثر الأمم

---

(١)ابن تيمية /الجواب الصحيح (١/١٨٩).

(٢) ابن تيمية /الجواب الصحيح (١/١٩٢)

(٣)ابن تيمية /الجواب الصحيح (١/١٩٥)

أنبياء ، ولم يمنع إرسال موسى والأنبياء بعده إرسال المسيح ، فكيف يمتنع إرسال محمد ﷺ إليهم ، وهم منذ مجيء المسيح لم يأتهم رسول حتى جاء محمد ﷺ ، وقد بلغت الفترة بينهما أكثر من ستمائة سنة[١].

٣- أما تفسيرهم لقوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) آل عمران /٨٥ بأن مراده قوم محمد من العرب ، فكذب وافتراء على النبى ﷺ وعلى القرآن وتفسير لكلام الله بغير المراد منه[٢].فقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) صيغة عامة إذ تعتبر مَنْ الشرطية من أبلغ صيغ العموم ، كما أن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم ، فالآية فى سورة آل عمران أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته ﷺ للنصارى ، فالآية نزلت لما قدم وفد نجران من النصارى على النبى ﷺ فى القصة المشهورة [٣] .

وهناك معنى آخر يقتضى شمول دعوته ﷺ فى الآية السابقة للنصارى واليهود وغيرهم ، ألا وهو أن الله – تعالى – قد أخبر فى كتابه أن الإسلام دين الأنبياء جميعا لقوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام)آل عمران /١٩٠

ثالثا : مجموعة الأدلة على عالمية الإسلام

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (١/٢١٠)٠

(٢) ابن تيمية / الجواب الصحيح (١/٢١٩-٢٢٠)٠

(٣) الواحدى / أسباب النزول /ص :٧٤-٧٥/مكتبة المتنبى القاهرة/بدون ترقيم٠

من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله ﷺ وبالنقل المتواتر الذى هو أعظم تواترا مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما ، وبالقرآن المتواتر عنه ، وسنته المتواترة عنه ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده أنه ﷺ ذكر أنه أُرسل إلى أهل الكتاب : اليهود والنصارى كما ذكر أنه أُرسل إلى الأميين رسولا ، بل ذكر أنه أُرسل إلى جميع بنى آدم : عربهم وعجمهم من الروم والفرس والترك والهند والبربر والحبشة وسائر الأمم بل إنه أُرسل إلى الثقلين الجن والإنس جميعا (١).

وتنقسم مجموعة الأدلة على عالمية الإسلام وشموله الجن والإنس جميعًا التقسيم التالى :

(أ) دعوته ﷺ اليهود والنصارى بالمدينة للإسلام .

(ب) إرساله الكتب والرسل إلى ملوك النصارى وغيرهم من الحكام .

(ج) جهاده النصارى واليهود وغيرهم وأمره بقتالهم .

(د) تصريحه ﷺ بإرساله إلى الناس عامة .

(هـ) دعوة القرآن لأهل الكتاب بالإيمان بمحمد ﷺ وتصريحه ببعث محمد ﷺ للناس كافة .

وقد وردت على كل قسم من هذه الأدلة مجموعة من الدلائل وذلك على النحو التالى :

---

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٤٩/١) .

(أ) دعوته ﷺ اليهود والنصارى بالمدينة للإسلام[١]

يُذكر أن كثيرا من اليهود بالمدينة قد استجابوا لدعوته ﷺ وآمنوا به لما أظهره من دلائل النبوة ، كما هو معروف من السيرة النبوية[٢] ، أما النصارى فقد دعاهم للإسلام وناظرهم حينما قدم عليه وفد نجران من النصارى وطلب منهم المباهلة فرفضوا وأقروا بالجزية [٣]

(ب) إرساله ﷺ الكتب والرسل الى الملوك والحكام [٤]

ومنها كتبه ﷺ إلى كل من : هرقل ، المقوقس ، النجاشى ، كسرى فقد أرسل ﷺ دحية الكلبى بكتاب إلى هرقل ملك الروم النصارى جاء فيه [٥]"بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ، و(ياأهل

---

(١) ابن تيمية /الجواب الصحيح (١/٥٠-٨٨)٠

(٢) ابن هشام /السيرة النبوية (٢/١٠١-١٠٢)٠

(٣) الواحدى / أسباب النزول /ص :٧٤-٧٥)٠

(٤) ابن تيمية / الجواب الصحيح (١/٨٨-١١٠)٠

(٥)تاريخ الطبرى (٢/٦٤٩)٠
- البخارى (كتاب التفسير: سورة آل عمران/ باب قل: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)٠ مسلم (كتاب الجهاد/ باب كتاب النبى - صلى الله علية وسلم-إلى هرقل يدعوه للإسلام)٠

الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئا، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وكتب إلى المقوقس حاكم مصر كتابا بعثه مع حاطب بن أبى بلتعة هذا نصه[1]: "بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط ، و(ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

(ج) جهاده ﷺ اليهود والنصارى [٢].

فقد أرسل أولا زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة فى جيش لقتال النصارى بمؤتة ، ثم بعد ذلك غزا النصارى بنفسه وأمر جميع المسلمين القادرين على القتال أن يخرجوا معه لقتال النصارى فى تبوك وقام خلفاؤه من بعده بدينه ، فغزوا النصارى وفتح الله الشام على يدى خليفته الفاروق عمر بن الخطاب وكذلك قاتل اليهود وأرسل عليّا لقتالهم فى غزوة خيبر .

---

(١) ابن هشام / السيرة النبوية (١٨٧/٤) .
- الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى/ مجموعة الوثائق السياسية فى العصر النبوى والخلافة الراشدة /ص٥٠ .
(٢) ابن تيمية / الجواب الصحيح (١/١٠١-١١٠) .

(د) تصريحه ﷺ ببعثه إلى الناس عامة

فقد روى جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : " ..... وكان النبى يُبْعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة .... " البخارى (كتاب الصلاة / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا) .

(هـ) تصريح القرآن بإرسال محمد ﷺ للناس كافة

يقول تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا) سبأ / ٢٨، ويقول تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض) الأعراف / ١٥٨

ويأمر - سبحانه وتعالى - بجهاد اليهود والنصارى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) التوبة/٢٩

الدعوى السادسة

الإسلام هرطقة مسيحية

درج النصارى على تسمية كل مخالفة لعقيدة التثليث وألوهية المسيح وطبيعته بالبدع و"الهرطقات" ، وأطلقوا تلك التسمية على كل مخالف لقانون الإيمان (الأمانة) بدءًا بآريوس ، وانتهاء بكل من تُسوّل له نفسه التصريح بضرورة البحث وإعمال العقل الصريح للوقوف على طبيعة الإيمان الصحيح(١) .

ومن ثم نظر المسيحيون – سواء من عاش منهم داخل الأراضي الإسلامية أو خارجها – إلى الإسلام على أنه بدعة محرَّفة عن الدين النصراني الصحيح ولكن تحديدا كبدعة تهدد ذلك الدين(٢) .

وكان الدافع وراء اعتبار الكنيسة الإسلام " هرطقة مسيحية" هو انضمام الطوائف التوحيدية في المسيحية للإسلام ، أو توافقها مع الإسلام حول طبيعة المسيح ، فتلك الطوائف هي التي رفضت قبول الثالوث كما

---

(١) زكي شنودة / تاريخ الأقباط (١-١٤١-١٤٢)

(٢)الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى مقال بمجلة عالم الفكر/ص : ٧٠٣،٧١٤،٧١٧ .

Klaus Hock, Der Islam im Spiegel westlicher Theologie, S: 99, 101, 112

صيغ أساسه فى مجمع نيقية واستقر فى مجمع القسطنطينية وهى لا ترى فى المسيح إلا نبيًّا ورسولا بشريا(١).

ويبدو أن هناك شبه اتفاق بين طوائف النصارى على هذا الرأى ، إذ يبدون له ارتياحا عظيما ، بل يعتبرون نظرة يوحنا الدمشقى للإسلام على أنه " هرطقة مسيحية" يعتبرونها أكثر آرائه أصالة ، ويذهبون إلى أنه لم يأت برأى أصيل إلا فى الإسلام(٢).

وقد تبع تيودور أبو قرة أستاذه يوحنا الدمشقى فى خلاصة رأيه فى الإسلام فاعتبر محمدا ﷺ نبيا أريوسيا مزيفا(٣) .

وعلى هذا النحو نظر بطرس الموقر (ت١١٥٦م) رئيس رهبان كلونى بأسبانيا إلى الإسلام باعتباره هرطقة نصرانية (٤) .

وفيما بعد وضع دانتى محمدا ﷺ فى عداد الهراطقة لا فى عداد الوثنيين إذ ورد الكلام عنه فى (الحلقة الثامنة من الجحيم – نشيد ٢٨) من الكوميديا الإلهية ، وهى نفس حلقة الباباوات ، (نيقولا الثالث ، يونيفاس

(١) روجيه جارودى / وعود الإسلام / ص:٤١/بترجمة د٠ ذوقان قرقوط ٠

(٢)لويس جارديه – جورج قنواتى / فلسفة الفكر الدينى (٤٣/٢) ٠

= لويس جارديه / (الاسلام من وجهة نظر المسيحية) ترجمة أستاذنا الدكتور حامد طاهر ٠مقال بمجلة القاهرة .

= بابا دوبولس / تاريخ كنيسة أنطاكية / ص٥٢٨٠ ٠

(٣)الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى /ص:٧٠٦، مقال بمجلة عالم الفكر

(٤) د٠ زقزوق / الاستشراق / ص٢٤ ٠

الثامن كليمانت الخامس) [١] ومن المعروف أن دانتي يتبنـــى فلســفة توما الإكوينى اللاهوتية [٢] .

ورغم هذه الفرضيات التى يخلعها النصارى على الدين الإسلامى لم ينفك الإسلام يعبر خلال تاريخه الطويل ، عن قناعات ذاتية خاصة به تؤكد خضوعه التام لتقريرات الوحى الإلهى ، والتزامه الصــــارم بـــها ، كدين سماوى توحيدى أصيل ، استوقفت أصالته أحرار الفكر ولفتت انتباههم ، فقام مؤرخون محدثون يتساءلون عن هذه الزوابع التى ينشـــرها إخوتـــهم مــن النصارى ويرجعون تلك الادعاءات النصرانية إلى مواقف ومشاعر شخصية قد حرفتها أهواء عصرية ذات صبغة سياسية تغذى تلــك المناقشــات التــى تدفعها الصراعات الدينية المحكومة بالمواجهات العسكرية[٣].

ولسنا بحاجة هنا إلى التوسع فى تقريـــر أصالـــة الإســـلام وعقــد الموازنات بينه وبين النصرانية ، كى تثبت أن الإسلام ليس هرطقة مســيحية ، فتلك ليست مهمة هذا المبحث وإنما عرضنا لهذه المسألة باعتبارها مدخـــلا وأساسا لادعاءين انفرعا عن هذه الدعوى وترتبا عليها وهما :

١- أن النبـــى ﷺ قـــد اعتمـــد فـــى كتابتـــه القـــرآن علـــى الكتـــاب المقدس، وخاصة على العهد القديم فى قسم القصص ، ومـــن ثـــم فـــالقرآن تكرار للقصص التوراتى[٤] .

---

(١) جارودى / وعود الإسلام /ص٤١ ٠
(٢)د٠ رجاء جبر/ فى الأدب المقارن : دراسة فى المصادر والتأثيرات / ص٧٧
(٣) دومينيك سورديل / الإسلام فى القرون الوسطى / ص ٢٦ ٠
(٤)موريس بوكاى/ دراسة الكتب المقدسة/ص١٤٩ ٠

٢- أنه ﷺ تعلم ماجاء به من راهب مسيحى يدعى (بحيرا)[١] .

ويجاب عن الادعائين على النحو التالى :

١- الادعاء بأن القرآن تكرار للقصص التوراتى :

يقوم رد ذلك الادعاء على النقد المنهجى المقارن لمتن ومحتوى القصص القرآنى والقصص التوراتى ، ذلك النقد المقارن الذى أبرز فروقا جوهرية ثلاثة بين القصص فى القرآن والقصص فى التوراة وهى :

١- قصص لم يوردها الكتاب المقدس بقسميه التوراة والإنجيل ، لا التوراة فحسب ، وذلك كقصة هود وصالح وشعيب .

٢- معلومات لايوجد مثلها فى الكتاب المقدس كالمعلومات الواردة عن المعاد مثلاً .

٣- تفصيلات دقيقة عن الجنة والنار والنعيم والعذاب فى الآخرة جاءت فى القرآن وليس لها مثيل فى الكتاب المقدس .

يقول ابن تيمية فى ذلك : " **وفى القرآن من قصص الأنبياء - عليهم السلام - ما لا يوجد فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك ، وفى القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب ما لايوجد مثله فى التوراة والإنجيل ، بل**

- د. زقزوق/ الاستشراق / ص٨٤ .
- بابا دوبولس / تاريخ كنيسة أنطاكية/ ص٥٢٨ .
- دومينيك سورديل / الإسلام فى القرون الوسطى / ص٢٤ .

(١) دومينيك سورديل / الإسلام فى القرون الوسطى / ص٢٥ .

التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد ، وعامة ما فيها من الوعد والوعيد فهو فى الدنيا كالوعد بالرزق والنصر والعافية، والوعيد بالقحط ، والأمراض ، والأعداء" [١] .

وقد فتح الإمام بذلك الباب أمام علماء الأديان لإثبات الخلافات الجذرية والجوهرية بين القرآن والكتاب المقدس ، فى مجال القصص وغيره ، فما انفك علماء النقد المنهجى المقارن لمتون الروايات التوراتية والقرآنية يسيرون فى هذا الدرب حتى قادتهم دراساتهم إلى التساؤل **إن كان محمد مؤلف القرآن - كما يدعى البعض - قد نقل كثيرا من التوراة فمن الذى دفعه ؟ وما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيدا عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه ؟[٢]**

ولم يجدوا مفرا من التسليم بأن الإسلام له ذاتيته الخاصة على الرغم من التشابه الظاهرى بينه وبين الديانات السابقة ، وبأن محمدا ﷺ مؤسس حقيقى لدين أصيل[٣] .

فذلك التشابه والاتفاق فى بعض المواضع والقصص بين الكتاب المقدس والقرآن مرجعه إلى أمرين [٤] :

---

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (١/٢٠٠) .

(٢) بوكاى / دراسة الكتب المقدسة / ص٢٤٢ .

(٣) دومينيك سورديل / الإسلام فى القرون الوسطى / ص٣٣ .

(٤) الكونت دى كاسترى / الإسلام خواطر وسوانح / ص ٢٠-٢٢ .

أحدهما : أن القرآن جاء مصدقا لما صح من الكتاب المقدس ومهيمنا عليه .

الثانى : أن الأنبياء والرسل – صلوات الله عليهم أجمعين – يعبدون إلـها واحدًا أرسلهم جميعًا ، ومن ثم فقد اشتركوا فى المنهل الذى تلقوا عنه الوحى

كما أن هناك أمرين يقفان عقبة كئودا فى وجه ذلك الادعاءألا وهما (١)

أولا : أن النبى ﷺ كان أمياً لايعرف القـراءة والكتابـة حتـى يسـتطيع استخلاص تعاليمه من مطالعاته المباشرة للكتـب المقدسـة القديمـة سـواء أكانت يهودية أم مسيحية أم غيرها ، وكانت تلك الأمية برهانا أكد به القـرآن ربانية تعليمه ﷺ ، إذ يقرر القرآن أن محمدا ﷺ ليس أميا فحسب ، بـل لم يسبق له أن قرأ كتابا قبل القرآن أو كتب بيده ، يقول تعالى:{وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} العنكبوت / ٤٨ .

ثانيا : على فرض معرفته ﷺ بالقراءة ، فلم تكن قد وجُدِت فى هذا الوقت توراة أو إنجيل باللغة العربية :

إذ تجمع الدراسات على أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لم ينقل إلى اللسان العربى فى عهد الرسول ﷺ ولا فى عـهد الخـلفاء الراشدين(٢) ، بل يذهب الباحثون المحققون من النصارى إلى أبعد من ذلك ، فيؤكد الدكتور "جراف" Graf : أن الكتاب المقدس لم يظهر باللغة العربيـة إلا

---

(١) د٠ محمد عبد الله دراز / مدخل إلى القرآن الكريم / ص١٣٩-١٤١ ٠

(٢) د٠ محمد الشرقاوى/ مقدمة تحقيقه لكتاب الرد على النصارى للجاحظ/ ص٦٧.

بعد ذلك بقرون عديدة فلم تكن الحاجة – فى نظره – ملحة لإنجيل بالعربية إلا فى القرن التاسع والعاشر(١) .

وهذا ما تؤكده أحدث دائرة للمعارف الدينية

Theologische Realenzklopuedie من خلال تتبعها الدقيق لتاريخ أقدم تراجم العهد الجديد (٢)

٢- الادعاء بأنه ﷺ تعلم ماجاء به من بحيرا الراهب

ويُرفض ذلك الادعاء – بداية – انطلاقا من سند تاريخى ، ونظرة واقعية تحليلية فاحصة لقصة الراهب المسيحى بحيرا والتى تذكر أن محمدا ﷺ قابله فى الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب فى سفره إلى سوريا .

إذ يجب الأخذ فى الاعتبار أن تلك المقابلة بحسب الثابت من تاريخه وسيرته ﷺ كانت مقابلة عارضة تمت فى جزء من نهار لاتصلح أن تكون مصدرا لتعليمه ﷺ (٣) .

كذلك فإن إخضاع القصة للنهج النقدى فى دراسة متون القصص ، مع الوضع فى الحسبان كل وقائع المقابلة التى تمت فى حضور جميع أفراد

(١) مجلة (العالم الإسلامى) باللغة الإنجليزية – عدد إبريل ١٩٣٩م ، نقلا عن الدكتور محمد عبد الله دراز/ مدخل إلى القرآن ص ١٤١ ·

(٢) TRE, 4, 211-213.

(٣) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٢٩٦/٣ – ٢٩٧)

القافلة ، يقود إلى أن محمداً ﷺ كان مستخبَرَاَ عنه ولم يخبره الراهب بشيء[١] .

وتؤكد الدراسة النقدية الحرة لكتاب النصارى ذلك الاستدلال ، جاء فى خاتمة مقال لـ "هوارت" أحد كتبة النصارى :

"لاتسمح النصوص العربية التى عُثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال" [٢] .

ويضاف إلى ذلك مجموعة من الموانع التى تقف عائقا أمام قبول الادعاء بأنه ﷺ تعلم من بَشَر هو بحيرا أو غيره [٣] :

أولها : أن قومه المعادين له والذين هم من أحرص الناس على القدح فى نبوته مع كمال علمهم بحاله لم يطعنوا فيه بذلك ، ويمتنع ألا يقدحوا فيه وكذلك يمتنع عدم ظهور ذلك الطعن .

الثانى : تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون : لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك

الثالث : لو كانت هذه التعاليم التى جاء بها من تعليم أهل الكتاب مع عدواتهم له، لكانوا أخبروا بذلك وأظهروه ، وذلك من الحوادث التى لا تخفى لو نقلت مع توافر الهمم والد واعى على نقلها .

---

(١) السابق : (٣/٢٩٧)

(٢) الجريدة الآسيوية : عدد يوليو – أغسطس ١٩٠٤م ، نقلا عن الدكتور دراز (مدخل إلى القرآن الكريم) ص١٣٤ .

(٣) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٤/٢٤-٢٥ ، ٥٣-٦٣) .

الرابع : لم يكن هناك أحد على الدين الذى دعا إليه لا وثني ولا كتابى

الخامس : أن مثل هذا الأمر – لو كان – لابد أن يعرفه خواص أصحابه الذين آمنوا به ، ولعلموا كذبه ، فكيف ذلك وقد كان أخص أصحابه وأعلمهم بحاله من أعظم الناس محبة وموالاة له ؟

السادس : أن أخباره مستفيضة مشهورة لم يبق منها خفايا على الناس ماهو دون هذا من أحواله ، فكيف بهذا الأمر !؟

السابع : أن أهل الكتاب كانوا يسألونه مسائل يقولون : إنه لايعلمها إلا الأنبياء ؛ ليمتحنوا بها نبوته ، وكان ﷺ يجيبهم عليها ، فلو كان السائلون يعلمون أن أحداً من إخوانهم علمه ذلك لما حصل مقصودهم من امتحانه هل هو نبى أم لا .

والغريب فى الأمر أننا إذا سايرنا أهل الكتاب فى ادعائهم بتعليم النبى ﷺ من بحيرا الراهب ، وطالبناهم بالدليل على أن محمدا ﷺ قد نقل فى القرآن ماعلّمه الأحبار والرهبان إياه أو أملوه عليه !!

جاءت الإجابة : ليس هناك دليل على ذلك ، كما أنه ليس هنالك أى سند للدعوى القائلة بأن راهبا مسيحيا قد علمه تعليما دينيا متينا" [١].

(١) بوكاى / دراسة الكتب المقدسة / ص ١٧٣ .

الفصـــل الثالث

دلا ئـــل النُّبـــــوة

سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق

(فصلت / ٥٣)

لم يرد مصطلح " دلائل النبوة " فـــى الاســتعمال القرآنـــى ، بـــل استخدم القرآن للتعبير عنه ألفاظاً أخرى مثل " البرهان " كما جاء فى قولـــه تعالى فى شأن العصا واليد : (فذانك برهانان من ربك) القصــص / ٣٢ ، ومثل " البينات " كما فى قوله تعالى : (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا ســحر مبين) الصف / ٦١ ، وقوله : (فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك جــاءوا بالبينات) آل عمران / ٣ ، ومثل "الآيات" كما فى قوله تعالى : (ســـنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فصلت / ٥٣ إلا أن مصطلح " دلائل النبوة " قد اشتهر بين المصنفين فى هذا المجال كالقـــاضى عبدالجبار [١]، وابن قتيبة [٢] ، والبيهقى [٣]، وأبى نعيم الأصبهانى [٤].

وإن كان بعضهم قد أطلق مسميات أخرى : كالجاحظ الذى أسـماها "حجج النبوة " [٥] ، وابن حزم " [٦] ، والماوردى [٧] ، وأطلقا عليـــها اســم " أعلام النبوة " .

لكن التسمية بـــ " دلائل النبوة " هى الأكثر شـــهرة وانتشـــاراً ربمـــا لأنـــها أدل على المقصود، بما يفهم عند إطلاقها من تضمنها هذه المعانى جميعها .

---

(١) انظر كتابه " تثبيت دلائل النبوة " .

(٢) انظر كتابه " دلائل النبوة " .

(٣) انظر كتابه " دلائل النبوة " .

(٤) انظر كتابه " دلائل النبوة " .

(٥) انظر رسالته " حجج النبوة " المنشورة بهامش الكامل للمبرد – طبع مطبعة التقدم العلميـــة بدرب الدليل عام ١٣٢٣هـــ الطبعة الأولى .

(٦) ابن حزم / الفصل (١ / ٦٦) .

(٧) انظر كتابه " أعلام النبوة " .

ولدلائل النبوة فى الإسلام خصائص وسمات تُعْرف وتمتاز بـــها ، ومن هذه الخصائص :[١]

أولا : ألا يقدر غير الأنبياء على معارضتها أو إبطالها ؛ لذلك عندما جمع فرعون السحرة وأمرهم أن يعارضوا ماجاء به موسى حتـــى لا تبقـــى حجته مختصة بالنبوة ، فألقوا عصيهم وصنعوا خوارقهم التى ابتلعتها عصـــا موسى التى صارت حية ، علم السحرة أن هذا ليس مـــن جنـــس مقدورهـــم فآمنوا بموسى وأجابوا فرعون قائلين (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينـــات والذى فطرنا) طه / ٧٢ .

ثانيا : أنها مختصة بالنبى ليست مشـــتركة بينـــه وبيـــن غـــيره ، فالدليل مستلزم لمدلوله ، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منـــه ، بـــل إمـــا أن يكون مساوياً له فى العموم والخصوص ، أو يكون أخص منه [٢] ، فإنه يلزم من تحققه تحقق المدلول ، وإذا انتفى المدلول انتفى هو .

ثالثا : سلامتها من التناقض ، فكل ماجاء من عند الله لا يتناقض ، كما قال تعالى:(ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)النساء/ ٨٢ .

رابعاً : ليس من شرطها استدلال النبى بها ولا تحديه بالإتيان بمثلـها بل هى دليل على نبوته وإن خلت من هذين القيدين ، وذلك كإخبار من تقـــدم بنبوة محمد ﷺ فإنه دليل على صدقه ﷺ وإن كان هو لـــم يســـتدل بمـــا أخبروا به وقت إخبارهم به . كذلك مثل الآيات العديدة التى أظهرها الله على

(١) د.عبدالراضى عبد المحسن/ منهج أهل السنة والجماعة فى الرد على النصارى / ص ٣٣٨ - ٣٤٠

(٢) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٥ / ١٩٩ ، ٢١٠ - ٢١٢) .

يديه لحاجة المسلمين إليها مثل تكثير الطعام والشراب ونبع الماء من بين أصابعه ونزول المطر بدعائه مما لم يظهره للاستدلال أو التحدى [(١)] .

خامسا : ليس من شرط دلالتها استدلال النبى بها ، فالدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به ، بل ماكان النظر الصحيح فيه موصلاً إلى علم فهو دليل وإن لم يستدل به أحد ، وما لايدل إذا لم يستدل به لا يدل إذا استدل به ، ولا ينقلب ماليس بدليل دليلاً إذا استدل به مدع لدلالته .

سادساً : لا تكون إلا خارقة للعادة ، ولا تكون مما يقدر أحد على معارضتها ولا تكون مما يعتاده غير الأنبياء ، فمتي عرف أنها توجد لغير الأنبياء بطلت دلالتها .

سابعاً : خارجة عن مقدور مَنْ أرسل الأنبياء إليه وهم الجن والإنس ،فلا يقدر الإنس والجن على أن يأتوا بمثل معجز الأنبياء كما قال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) الإسراء / ٨٨ ، أما الملائكة فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك لأن الملائكة لا تتنزل إلا على الأنبياء .

وتقود دلائل النبوة إلى العلم بصدق دعوى النبوة ممن تقع على يديه هذه الدلائل ، يقول القاضى عبدالجبار : " اعلم أنها تدل على صدق الرسول فيما يدعيه من النبوة من حيث تقع موقع التصديق " . [(٢)]

---

(١) ابن حزم / الفصل (٥ / ٢ ، ٥ - ٦) .

(٢) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٥ / ١٦٨) .

وهذا العلم الحاصل بصدق النبوة يمتاز بسمتين تخلعان عليه درجة المعرفة اليقينية ، وهما :

١ - **القطع** ، أى أنه علم قطعى الدلالة والتصديق ، كما يشرح ذلك الآمدى قائلاً " وقد يكون التعريف للصدق بإظهار المعجزات على يد مدعى النبوات على وجه تدين له العقول السليمة بالإذعان والقبول وذلك أنه إذا قال : أنا رسول وآية صدقى فى قولى إتيانى بما لا تستطيعون الإتيان بمثله ولو كان بعضكم لبعض ظهيراً من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وشق البحر ، وقلب العصا حية ، وغير ذلك من الآيات ، فإذا ظهر ذلك على يديه مقارناً لدعوته قطع كلُّ عقلٍ سليم ولُبٍّ مستقيم بتصديقه فى قوله وتحقيقه " (١)

٢ -**أنه علم ضرورى**، يقول الآمدى" فالعلم بصدق المتحدى بالنبوة عند اقتران المعجزالخارق للعادة بدعواه واقع لكل عاقل بالضرورة" (٢) .

وهذا العلم الضرورى القطعى بصدق دعوى النبوة ممن تجرى على يديه دلائلها يُستفاد من طرق توصل إلى صحة اليقين عند من لم يشاهد هذه الدلائل كصحته عند من شاهدها ولا فرق (٣) .

ومن هذه الطرق المؤدية إلى صحة اليقين ، مايلى : (٤)

الطريق الأول : التواتر العام

إذ تواترت هذه الدلائل لدى العامة ونقلتها الأمة جيلا بعد جيل وخلفا عن سلف أكثر من تواتر كثير من أحكام الشريعة ، كتواتر سجود السهو وأنصبة

(١) الآمدى / غاية المرام فى علم الكلام / ص ٣٢٧ .

(٢) السابق / ص ٣٢٩ .

(٣) ابن حزم / الفصل (١ / ٦٦) .

(٤) د.عبدالراضى عبد المحسن ، منهج أهل السنة والجماعة فى الرد على النصارى / ص ٣٤٢ - ٣٤٦

الزكاة وفرائضها تلك الأحكام التى نقلتها طائفة قليلة . أما هذه الدلائل فكـــان كثير منها بمشهد خلق عظيم كإطعام الجيوش وشربها من الماء الذى نبع مـن بين أصابع النبى فى غزوات الخندق وتبوك وما شاهده أهل الحديبية وخيبر ، كما أنها اشتهرت أكثر من الأخبار المنقولة عن الملوك والأمم والتى جـــرت العادة بتوافر الهمم والدواعى على نقلها .

الطريق الثانى : التواتر الخاص

وذلك كتواترها لدى طائفة المحدثين وهم أكثر الناس عنايـــة بجمـــع سـيرة النبى ﷺ ومعرفة أحواله ، وأعظمهم تحريا للصدق فيها حتى أنهم صنفـــوا الكتب والمؤلفات فى رواة أخباره وأحوالهم وما يتصل بهم من جرح وتعديـل وتعتبر هذه الدلائل من موارد إجماعهم المستفيضة وليست من موارد نزاعهم

الطريق الثالث : التواتر المعنوى

وهو اشتراك عامة الناس فى معرفة أخبار وحكايات يجمعـــــها أمـــر واحـــد كالأخبار التى تتضمن شجاعة عنترة وسخاء حاتم الطائى وحلم الأحنف بـــن قيس وعدل عمر بن الخطاب وزهد الحسن البصرى ، فمجموع تلك الأخبـــار يحصل به علم ضرورى بأن الشخص موصوف بذلك النعت ، وإن كان كـــل خبر على حدة قد لا يفيد العلم لعدم نقله بالتواتر ، لكن المجموع يحصل بـــه استفاضة توجب العلم القطعى كالعلم بالموت والإيمان .

والمعلوم أن دلائل نبوة محمد ﷺ أضعاف أضعاف ما ينقل عـــن الواحد من هؤلاء ، ونقلتها أكثر وأجل من نقلة هؤلاء .

الطريق الرابع : الإقرار والتصديق

ذلك أن تلك الآيات كانت تقع على مرأى ومسمع كثير من الخلق يحصون بالآلاف ، وكان المشاهدون لها ينقلون تفاصيلها أمام آخرين لم يشاهدوها فيصدق الرواة بعضهم بعضاً دون إنكار من أحدهم أو تواطؤ ولما كان السلف أكثر الناس اعتياداً للصدق وتحريه ، وتوقيا للكذب بسبب ماتواتر عندهم من قوله ﷺ : " من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " ، فإن اتفاقهم وإقرارهم على نقل دلائل نبوته لغاية ومبلغ العلم اليقيني القطعي بصحة تلك الدلائل .

الطريق الخامس : النقول المتواترة لطوائف العلماء .

فما من طائفة من طوئف العلماء إلا وقد تواتر عندها من الآيات مافيه الكفاية ويزيد ، فكتب التفسير مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، وكذلك كتب الحديث ، والسير والمغازى، والتاريخ والفقه ، وكتب الكلام ؛ وبديهى أن نقل كل طائفة من تلك الطوائف يفيد العلم اليقينى ، فكيف باجتماع نقول كل تلك الطوائف .

الطريق السادس : مصنفات دلائل النبوة .

ذلك أن العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة فى ذكر آياته وبراهين نبوته ، وجردوا لذلك كتبا مثل كتاب " دلائل النبوة " للبيهقى ، ولأبى نعيم الأصبهانى ، ولابن قتيبة ، ومثل ماصنفه أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه

المسمى " الوفا فى فضائل المصطفى " ، والقاضى عياض فى كتابه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " .

وهؤلاء المصنفون منهم من يميز فيما يذكره من الأحاديث بين ما فى صحيحى البخارى ومسلم ، وما فى غيرهما ، كما يفعل البيهقى وابن الجوزى ومنهم من يذكر الإسناد ويتحدث عنه ، ومنهم من ينسب إلى الرواة دون ذكر للإسناد كالقاضى عياض ، ومنهم من يستعمل طرقا أخرى تبين صحة ذلك النقل كما يفعل القاضى عبدالجبار والماوردى والجاحظ وغيرهم .

أما عن تقسيم دلائل نبوة محمد ﷺ وتصنيفها ، فقد اختلفت مسالك علماء الإسلام فى تصنيف تلك الدلائل :

فبينما يجمع على بن ربن الطبرى ، وهو أول المصنفين فى هذا المجال شهادات الحق ومقاييس العبر - كما يسميها - والتى إن توافرت لإنسان وجبت له النبوة ، بينما يجمعها فى عشرة دلائل هى [1] :

١ - دعاء النبى ﷺ التوحيد .

٢ - عاطر سيرته وجميل سنته وشريعته .

٣ - ماظهر على يديه من آيات بينات .

٤ - إخباره بالمغيبات التى صحت فى زمانه .

٥ - تنبؤه بالحوادث التى صحت بعده .

(١) على بن ربن الطبرى / الدين والدولة فى إثبات نبوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم / ص ٢٢ - ٢٣

٦ – كتابه .

٧ – غلبته الأمم .

٨ – أن دعاته ونقلة أخباره خيار الناس وأبرارهم .

٩ – أنه خاتم الأنبياء الذى لو لم يبعث لبطلت نبوات الأنبياء فيه .

١٠ – أن الأنبياء السابقين قد تنبأوا عليه قبل ظهوره .

يكتفى سعيد بن حسن الإسكندرى فى كتابه مسالك النظر فى نبوة سيد البشر ، بالبشارات دليلاً على النبوة (١) .

ويورد أبو نعيم فى كتابة دلائل النبوة خمسة هى (٢) :

١ – سيرة النبى ﷺ وأحواله .

٢ – معجزاته .

٣ – البشارات .

٤ – أخلاقه .

٥ – معجزات أصحابه .

أما أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفرى فيبنى نبوة محمد ﷺ على أصول ثلاثة هى (٣) :

---

(١) سعيد بن حسن الإسكندرى / مسالك النظر فى نبوة سيد البشر .

(٢) أبو نعيم الأصبهانى / دلائل النبوة .

(٣) أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفرى / الرد على النصارى / ص ٩٥ .

١ – دعواه النبوة .

٢ – تحديه بالمعجزات الباهرة .

٣ – نصُّ الأنبياء المتقدمين على نبوته وشريعته وأمته .

ويذكر القرطبى المفسر من دلائل نبوة المصطفى ﷺ أربعة(١):

١ – سيرته وأخلاقه وأحواله ﷺ .

٢ – القرآن .

٣ – المعجزات .

٤ – ماظهر على أصحابه والتابعين من خوارق وكرامات .

ويقتصر القاضى عبدالجبار على القرآن والمعجزات دليلين على صحة نبوة محمد ﷺ (٢) ، ويجعل فيهما غنى عن النظر فى البشارات وإن كانت دليلاً ، فيقول: " فإنهم ذكروا تلك المواضع من تلك الكتب وما فيها من البشارات والإشارات، فإن أردتها وجدتها، وإن كان فمعك ما يغنيك عنها " (٣) .

ويسلكها الإيجى فى مسالك أربعة (٤) :

١ – دعواه النبوة وظهور المعجز على يديه بما فيه القرآن .

(١) القرطبى/ الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام/ ص ٢٦١–٣٨٧

(٢) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ١٤٣ – ٤٢٣) .

(٣) القاضى عبدالجبار / تثبيت دلائل النبوة / ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

(٤) الإيجى / المواقف / ص ٣٤٩ – ٣٥٨ .

٢ – أحواله قبل النبوة .

٣ – البشارات .

٤ – تكميله القوة العملية والعلمية لقومه بما تضمنته دعوته من حكمة وأخلاق وعلم وعمل وإيمان أظهره على الدين كله .

ويثبت الماوردى من أعلام النبوة خمسة [١] :

١ – القرآن الكريم .

٢ – المعجزات .

٣ – البشارات .

٤ – سيرته ﷺ وأحواله .

٥ – أخلاقه ﷺ .

ويعرض الآلوسى [٢] فى رده على عبدالمسيح من دلائل النبوة ثلاثة:[٣]

١ – القرآن .

٢ – المعجزات .

(١) الماوردى / أعلام النبوة / ص ٤٤ – ١٧٨ .
(٢) هو نعمان بن محمد الآلوسى البغدادى المولود سنة ١٢٥٢هـ والمتوفى ١٣١٧هـ . ابن مفسر القرآن الكريم .
(٣) الآلوسى البغدادى / الجواب الفسيح لما لفقه عبدالمسيح (١ / ٢٦١ – ٤٢٠ ، ٢ / ٨٤ – ٢٧٢) .

٣ - البشارات .

ويورد رحمة الله الهندى فى دلائل النبوة ستة مسالك هى [١] :

المسلك الأول : ظهور المعجزات الكثيرة على يده ﷺ .

المسلك الثانى : أخلاقه وأوصافه ﷺ .

المسلك الثالث : ما اشتملت عليه شريعته ﷺ .

المسلك الرابع : ظهوره بين قوم وثنيّين ، وظهور دينه على سائر الأديان فى مدة قليلة .

المسلك الخامس : ظهوره فى وقت كان الناس بحاجة إليه .

المسلك السادس : إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ﷺ .

ويرجع هذا الاختلاف فى تصنيف دلائل نبوته ﷺ فى أحد جوانبه إلى اختلاف طريقة المصنفين وغرضهم من تأليف ووضع كتبهم : أهى ردود على المخالفين كما فى حال إظهار الحق لرحمة الله الهندى وكتاب القرطبى والجعفرى فى الرد على النصارى ؟ أم هى مصنفات وضعت ابتداء لغرض إثبات النبوة تحدوها عاطفة دينية متقدة ترى خدمة الإسلام فى تقديم خبرتها ومعرفتها بما فى كتب اليهود والنصارى كما فى حال سعيد بن حسن الإسكندرى؟ أم مؤلفات لكبار الجدليين من المتكلمين كالقاضى عبدالجبار أو الإيجى ؟

(١) رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١٠٠٠) .

وترجع فى جانب آخر إلى تقسيم المعجزات لدى أولئك المصنفين وهل القرآن إحدى تلك المعجزات أم أنه صنف معجز بذاته لا ينضوى تحت أقسام أخرى

ويعد تصنيف الماوردى أفضل تصنيف لدلائل النبوة ، وهو الذى أخذ به ابن تيمية فى موسوعته الكبرى الجواب الصحيح [(١)] ، إذ يفرد هذا التصنيف القرآن العظيم كقسم مستقل من أقسام دلائل النبوة لأنه كما يقول الماوردى: " أصل شرعته ، ومستودع رسالته " [(٢)]. فهو أخص هذه الدلائل وأعجبها وأقواها وأبرزها ويمتاز عنها بخلوده إلى قيام الساعة .كما يتيح هذا التقسيم استيعاب جميع الحجج والبراهين والشواهد المختلفة على نبوة محمد ﷺ .

وسوف نعرض لدلائل نبوة محمد ﷺ وفق تقسيم الماوردى فى المباحث الأربعة التالية :

---

(١) راجع كتابنا : منهج أهل السنة والجماعة فى الرد على النصارى / ص ٣٤٧ .

(٢) الماوردى / أعلام النبوة / ص ٤٣ .

المبحث الأول

القرآن الكريم

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على
أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا

(الإسراء / ٨٨)

القرآن الكريم هو دليل نبوة محمد ﷺ الأكبر وبرهانها الساطع وحجتها البالغة ، وأخص آياتها ، وأظهر علاماتها ؛ وذلك لأسباب أربعة لم تجتمع لمعجزة أو دليل نبوة أخرى فى تاريخ الدين والإنسانية وهى :

أولا : فيه اجتماع الوحى المدَّعى والدليل المعجز على النبوة ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : "فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم ، المنزّل على نبينا محمد ﷺ ، فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحى المدَّعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات من الوحى . فهو أوضح دلالة لاتحاد

الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ : (ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) البخارى (كتاب فضائل القرآن / باب كيفية نزول الوحى)
مسلم (كتاب الإيمان / باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس). يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها "(١) .

ثانيا (٢) : أن معجزات السابقين أبهرت وأعجزت فئات بعينها كالسحرة زمن موسى والقائمين على المداواة والعلاج أيام عيسى عليهما السلام ، أما القرآن الكريم فقد أعجز أمة بأكملها من الفصحاء والبلغاء وأرباب النظم .

ثالثا (٣) : أن المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم لذلك كانت المعجزات فى بنى إسرائيل تخاطب حواسهم فقط لما عُرف عنهم من بلادة وغباوة إذ لم يؤثر عنهم مايسجله التاريخ من آداب رفيعة أو فلسفات عميقة ، أما القرآن فقد نزل فى قوم هم أَحَدُّ الناس أذهانا وأصحهم أفهاماً قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعانى أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فَخُصوا من معجزه بما تجول فيه أفهامهم ، وتصل إليه أذهانهم ، فيدركوه بالفطنة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة .

(١) ابن خلدون / المقدمة / ص ٨٨ .
(٢) الماوردى / أعلام النبوة / ص ٤٤ .
(٣) السابق .

رابعاً [١] : أن معجز القرآن أبقى علــى الأعصــار وأنشــر فــى الأقطار ، ومادام إعجازه كذلك فهو أحج ، وبالاختصاص أحق .

ويدل القرآن على نبوة محمد ﷺ بطريق الاضطرار من وجهين:

الوجه الأول : من حيث الجملة

وطريقته هى العلم بأن محمداً ﷺ الذى كان بمكة وهــاجر إلــى المدينة وادعى النبوة وظهر عليه القرآن ، وأنه جعله دليلا على نبوته وتحدى بــه العــرب الذيــن هــم غايــة الفصاحــة والبلاغــة وهــذه الأمــور معلومة بالاضطرار لاوجه فيها للاستدلال [٢] .

ولما كان العرب وغيرهم قد عجزوا عن إجابة التحدى الذى دعــاهم إليه النبى بمعارضة القرآن ، ذلك التحدى الذى أخذ صورة تنازلية وليســت تصاعدية إمعانا فى السخرية وإظهار التعجيز :

إذ بدأ التحدى بالمطالبة بمعارضة القرآن كله : (أم يقولون تقوّلــه بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)الطــور / ٣٢ - ٣٣ ، ثم نزل بموضوع التحدى إلى عشر سور: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشــر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) هود / ١٣.

---

(١)الماوردى / أعلام النبوة / ص ٤٤ .

(٢) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ١٥١) ، شرح الأصول / ص ٥٩٤ .

- الرازى / نهاية العقول فى دراية الأصول / ص ٢٨٨ ، تحقيق صلاح محمد عبدالرحمن ، رسالة ماجستير بدار العلوم .

- الآمدى / غاية المرام فى علم الكلام / ص ٣٤١ - ٣٤٤ .

- الشهر ستانى / نهاية الاقدام / ص ٤٤٦ - ٤٤٩ .

ثم هبط بالتحدى إلى سورة واحدة : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب لعالمين ، أم يقولون افتراه . قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) يونس / ٣٧ - ٣٨ .

ثم قطع بفشلهم فى هذا التحدى ليس فى زمنهم فقط بل فيما يُستقبل من الزمان : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعُدَّت للكافرين) البقرة / ٢٤ وذلك تأكيداً لإخباره السابق بعدم قدرتهم مجتمعين ومتحالفين مع غيرهم من البشر أو مستعينين بالجن على معارضته : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) الإسراء / ٨٨ .

ولمّا كان ذلك التحدى والعجز عن المعارضة ظاهراً معلوماً بالاضطرار فإنه يقطع بدلالة القرآن على النبوة ، ذلك القطع الذى يشرح القاضى عبدالجبار حيثياته قائلاً : " الذى يدل على ذلك أنه ﷺ تحدى بالقرآن ، وجعله دلالة نبوته ، وموجباً لاتباعه وطاعته والانقياد له فيما يقتضى تحمل الكلفة والمشقة ، ومفارقة العادة والطريقة ، والانصراف عن سنن الراحة واللذة ، وهم النهاية فى الفصاحة والبلاغة التى جرت عليها العادة ، ولهم طريقة معروفة فى الأبية والأنفة ، وبذل الجهد فى حراسة الرياسة ، وترك الرضا بالانقياد والمتابعة ، وحالهم فى العقل ووفوره البصيرة فيما يتصل بالكلام والخطابة وامتناع الشبهة عليهم معروف ، وقد ظهر من أمرهم أن دواعيهم إلى إبطال أمره - ﷺ - قد بلغت الغاية ؛ لما ظهر من قول وفعل ، ودل عليه من مجرى وظاهر حال ، وقد علمنا أنهم مع هذا الحال قعدوا عن المعارضة ، وتركوا أن يأتوا بمثله ، مع سهولته

وبلوغهم به الوطر والمراد لو فعلوه ، وعدلوا إلى الأمور الشاقة التى تتضمن الخطر على النفس والمال ،ولا توصل إلى البغية لو نالوا منها نهاية المراد ، بل ظهر عنهم مايقتضى الاعتراف بالقصور والعجز ، فدل ذلك أجمع علـــى أنه من قبل الله تعالى ، وخص رسوله به ؛ ليدل على نبوته ؛ لما فيـــه مـــن نَقْض العادة التى توجب كونه معجزاً " [١] .

الوجه الثانى : من حيث التفصيل .

وطريقته النظر والمعرفة والتحصيل الذى لا يقـــدر عليـــه إلا مـــن يمكنـــه مدارسة القرآن وفهمه ، تلك المدارسة التى تكشف عن نـــواحٍ متعـــددة مـــن نواحى الإعجاز القرآنى ، تغطى جميع مجـــالاتِ عمـــل وســـائل المعرفـــة الإنسانية ويمكن تلخيص هذه النواحى فيما يلى [٢] :-

أولا : الإعجاز البيانى .

وجوه إعجاز القرآن من هذه الناحية تشمل :

---

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ٢٤٦) .
(٢) اعتمدت فى تلخيص وتقسيم هذه الوجوه على :-
- القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ١٦٧ - ٣٣٦) .
- الباقلانى / إعجاز القرآن .
- ابن النقيب / مقدمة التفسير فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن .
- الماوردى / اعلام النبوة / ص ٤٤ - ٥٩ .
- الآلوسى / الجواب الفسيح (٢ / ٨٦ - ٢٥٨) .
- سيد قطب / التصوير الفنى فى القرآن .
- د. محمد عبدالله دراز / النبأ العظيم / ص ٧٧ - ٢١١ .
- د. سعد الدين صالح / المعجزة والإعجاز فى القرآن الكريم / ٥٩ - ٢٢٠ .
- بخلاف مايشار إليه فى موضعه .

أ - **اللفظ** ، وبلاغة اللفظ القرآني من وجهين : أحدهما جزالته حتى لا يلين ، والثاني انطباعه حتى لا يخبو .

ب - **المعنى** ، وبلاغة القرآن من جهة المعنى بادية من وجوه ثلاثة :

أحدها أن معانيه لائحة فى مبادئ ألفاظه غير مفتقرة إلى مقاطعه .

والثانى أن معانيه مطابقة لألفاظه ، لم تزد عليها فيكون الاختلال فى اللفظ ، ولم تقصر عنها فيكون الاختلال فى المعنى ، ويتجلى ذلك فى الفارق بين قول العرب القتل أنفى للقتل ، وبين قوله تعالى:(ولكم فى القصاص حياة) **البقرة / ١٧٩.**

والثالث استيفاء معانيه فى قليل من الكلام وإيجازه عن الإكثار ، كقوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين)**هود / ٤٤** .

جـ - **النظم** ، ويتبدى حسن النظم القرآنى فى ملامح ثلاثة ؛

أحدها أن الكلام القرآنى متناسب لا يتنافر .

والثانى أن وزنه معتدل لا يتباين .

والثالث أنه لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد فهو كما وصفه الله تعالى :(كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) لذلك كانت شهادة الوليد بن المغيرة فى القرآن قوله : فوالله مافيكم رجل أعلم منى بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله مايشبه الذى يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ماتحته

د - **التصوير الفنى** ، وهو وجه جديد من وجوه الإعجاز البيانى فى القرآن ، كشف عنه الأستاذ سيد قطب حيث وقف على الأصول

العامة للجمال الفنى فى القرآن والتى تجسدت فـــى التصويــر الـــذى يـــراه الأداة المفضلة فـــى أســـلوب القـــرآن ، والقـــاعدة الأولـــى للبيـــان فيـــه ، إذ يعبر بـــالصورة المحســـة المتخيلـــة عـــن المعنـــى الذهنـــى ، والحالـــة النفســـية أو عـــن الحـــادث المحســـوس ، والمشـــهد المنظـــور ، وعـــن النمـــوذج الإنســـانى والطبيعـــة البشـــرية ، ثـــم يرتقـــى بـــالصورة التـــى يرسمها فيمنحها الحياة الشـــاخصة أو الحركـــة المتجـــددة ، فـــإذا المعنـــى الذهنى هيئـــة أو حركـــة ، وإذا الحالـــة النفســـية لوحـــة أو مشـــهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حىّ، وإذا الطبيعـــة البشـــرية مجســـمة مرئيـــة ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمنـــاظر فيردهـــا شـــاخصة حـــاضرة فيها الحياة وفيها الحركة ، وينسى المســـتمع أن هـــذا كـــلام يتلـــى ومثـــل يضرب ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع .

ووجه الإعجاز فى جانب التصوير الفنى فى القرآن أن أداتـــه هـــى الكلمة الجامدة لا الأشخاص المعبرة أو الألوان المصورة أو العزف المســـاعد على آلات الموسيقى .

ثانيا : الإعجاز الإخبارى .

يتجلى الإعجاز الإخبارى فى القرآن فى المجالات التالية :-

أ - **قصص وأخبار السابقين** ، إذ حكى القرآن بتفصيل ودقـــة بالغـــة عـــن أخبار الأمم الغابرة وأحوالـــها ومواقفـــها مـــن أنبيائـــها ، وســـيرة هـــؤلاء الأنبياء ودعوتهم ، مما لم يرد مثله فـــى الكتـــاب المقـــدس كقصـــة هـــود وصالح وشعيب ، ومما ورد أصله فى الكتاب المقدس لكن احتفظ القرآن بدقة وتفصيل مايخبر عنه وبقى نصه بعيداً عن مرمى أى نقد تثـــيره المعـــارف

الحديثة على حين أن نصوص الكتاب المقدس غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه [١] .

ب - **الغيبيات** ، وهى الإخبار عن خلق العالم ، وخلق آدم ، وعن الملائكة والجن والشياطين ، وعن المعاد والحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار والنعيم والعذاب ، مما ليس له نظير فى أى كتاب دينى آخر .

جـ - **التنبؤات** ، وهى الإخبار بالأمور الغيبية المستقبلية ، والتى وقعت كما أخبر بها القرآن تماماً ، وذلك مثل قوله تعالى : (ألم غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) **الروم / ١ - ٣** . إذ غلبت الروم فارس بعد سبع سنين .

وقوله تعالى : (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) البقرة /٩٤، فمع حرص اليهود على تكذيبه ﷺ لم تنبعث دواعيهم لإظهار تمنى الموت. ومثل قوله تعالى فى الوليد بن المغيرة (سأصليه سقر وما أدراك ماسقر ، لا تبقى ولا تذر) المدثر / ٢٦ - ٢٨ : وفى أبى لهب : (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب)المسد/١ - ٣ فقد مات الوليد بن المغيرة وأبو لهب كافرين .

ثالثا : الإعجاز التشريعى :

جاء القرآن بشريعة يسيرة سهلة تساير الفطرة البشرية بحيث تكون ميزاناً عاماً للحياة الإنسانية صالحاً لكل زمان ومكان ، مما يجعله دليلاً على ختم النبوة أيضاً فلا تقتصر دلالته على النبوة فقط .

---

(١) راجع كتابنا : منهج أهل السنة والجماعة / ص ٣٢٨ .

ويقوم الإعجاز التشريعي في القرآن على الوسطية والاعتدال إذ كان ذكر العدل في شريعة التوراة أكثر ، وكانت الدعوة إلى الفضل في تعاليم الإنجيل أظهر ؛ لذلك يقول النصارى إن موسى قد جاء بالعدل ، وعيسى قد جاء بالفضل أما شريعة القرآن فوسط بين الشريعتين ، إذ توجب العدل وتندب إلى الفضل ، كما يتبين في قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) الشورى / ٤٠ ، فهذا عدل ، وقوله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)الشورى/ ٤٠ ، لذلك يقال : جاء موسى بالجلال وعيسى بالجمال ، وبعث محمد بالكمال ، أي بكمال الشريعة الإسلامية التي تجمع بين اليسر واللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق ، وبين الشدة والجهاد وإقامة الحدود

وإلى جانب الوسطية تبرز وجوه أخرى للإعجاز التشريعي في الإسلام منها [1] :-

أ) المرونة :

فقد اعتمد التشريع القرآني على إرساء القواعد التشريعية العامة واجبة الاتباع والتي يمكن تطبيقها في كل مرحلة زمنية ومحلة مكانية ، وذلك كقاعدة ايجاب الشورى في الحكم : (وأمرهم شورى بينهم)الشورى / ٣٨ ، والتي أوجب القرآن تحقيقها ، لكنه لم يلزم بصورة معينة لتطبيقها. وكذلك قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات ، وجلب المصالح ودرء المفاسد ، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح،وإيجاب الحكم بين الناس بالعدل. الخ

(١) الغامدي / عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية / ص ٨٨ – ٩٥ .
– عبدالمتعال الصعيدي / لماذا أنا مسلم / ص ٣٢ – ٥٤ .
– د. جمال الدين عطية / النظرية العامة للشريعة الإسلامية / ص ٤٦ – ٦٠ ، ١٣١ – ١٣٦ .

ب) الشمول :

وذلك تصديقا لقوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) النحل / ٨٩ ، حيث شمل التشريع الإسلامى كل شؤون الحياة فلم يترك جانبا من جوانبها إلاوضع له تشريعاً يحفظ له صلاحه واستقامته بدءًا بالأخلاق والاداب وعلاقة الإنسان بربه ، مروراً بعمله وعلمه وتحصيله وكسبه قوت يومه ، وانتهاء بالنظم السياسية والحربية والاقتصادية فغطى بذلك دوائر العلاقات الثلاثة : علاقة الإنسان بربه وبمجتمعه وبنفسه ، فإذا ما قورنت الشريعة الإسلامية فى ذلك بغيرها من الشرائع والنظم الوضعية لامتازت باشتمالها على تنظيم الجانب التعبدى والأخلاقى ، وإذا ما قورنت بالأديان الأخرى تميزت باشتمالها على التنظيمات الاجتماعية بالمعنى الشامل الدقيق لمصطلحات السياسة والاقتصاد والاجتماع ولا يتسع المقام لطرح الآيات القرآنية التى تعالج جوانب الحياة الإنسانية بشمولها لكن تكفى الإشارة إلى بعض الآيات الجامعة التى تنطوى على تشريعات مختلفة مُتَضَمَّنَة فى نص واحد صغير وكلمات معدودة ، وذلك كقوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكّرون) النحل / ٩٠ ، والتى تجمع فى طياتها تشريعات فى السياسة ، والأخلاق ، والاجتماع ، والاقتصاد .

جـ) اليسر :

لما كانت جميع الشرائع والتكليفات القرآنية إنما جاءت لمصلحة الإنسان فقد راعت الفروق البشرية المختلفة والمستويات العقلية المتباينة وحالات الضعف والعجز التى قد يتعرض لها البشر ، فأصبح طابع اليسر والتيسير أهم

خصائصها وأبرز جوانب إعجازها ، التى مكنت الناس عامة من الانضـــواء تحت لوائها والحياة فى ظلالها .

وتشمل جوانب اليسر فى الشرائع القرآنية جانبى التكليف والأداء:

فعلى مستوى تلقى التكليف امتاز خطاب التكليف الشرعى بالبساطة واليســر بحيث يسع الأمىَّ تعقلها ليسعه الدخول تحت حكمها .

وعلى مستوى الأداء والتطبيق جاءت العبادات مثلا مثـــالاً لليســر والسهولة فالصلاة : لا تزيد فى اليوم والليلة عن سبع عشرة ركعة ، يمكـــن أداؤها فى أى مكان يوجد فيه الإنسان فى الحضر أو السفر ، والزكاة : مقدار يسير من الثروة المدخرة الذائدة عن حاجة الإنسان ، والصوم : شهر من كل عام ، يشمل النهار فقط أى فعليا نصف شهر كل عام ، والحج : مرة واحـــدة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا .

ولم تقتصر جوانب اليسر فى الشرائع الإسلامية على كيفية وهيئـــة أدائها بل هناك جانب هام آخر يتمثل فى الرخص الشـــرعية التـــى تُمنـــح لأصحاب حالات الضعف والعجز البشرى الدائمة والطارئة ، والتى قد تصل إلى حد الإعفاء الكلى من هذه الشرائع والتكليفات سوى الصلاة ، وذلك فـــى حالة المريض الفقير العاجز مثلا ، الذى لا يقوى على الحج أو إخراج الزكاة أو الصيام ، فلا يلزمه سوى الصلاة وهذه يرخّص له أيضاً بأدائـــها بكيفيـــة تحددها طبيعة مرضه أو عجزه ، إن جالساً أو نائمـــاً أو بإيمـــاء الـــرأس أو إطراق الطرف .

رابعاً : الإعجاز العقلى

يتجلى وجه الإعجاز العقلى فى القرآن فى خطابه العقل على نحو يستصرخ الفهم والفكر ويشركهما مع العواطف والإحساس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، فبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن أوجه ما اختصموا عليه ، وأقام البراهين والحجج على صحة العقائد ، وطالب بنى الإنسان بنبذ كل مالا يتفق وصحة المعقولات ، وقبول ما وافق العقل السديد والنظر الصحيح ، لذلك يُعَدُّ التفكير فريضة يوجبها الإسلام ، كما أن التفكير يوجب الإسلام [١] .

لهذا يرى بعض المفكرين كالإمام محمد عبده أن القرآن قد نزل لما بلغت سن المجتمع البشرى النضج وثاب إلى الرشد [٢] .

ولما كان خطاب القرآن العقل يهدف إلى تأسيس اليقين فى المعرفة على منهج صحيح، وذلك كمقدمة ضرورية لبناء اليقين فى الاعتقاد ، فإن هناك بعض الأصول العامة التى نبه القرآن إليها لبناء اليقين وهى [٣] :

١ – ألا يقبل المرء فى عقله أموراً لم يتحقق له صدقها ، ولم يقم لديه الدليل على صحتها ؛ حتى لا يؤسس اعتقاده على وهم أو خيال .

٢ – ألا يؤسس حكمه على الظن أو يبنى اعتقاده عليه ، لأن الظن لا يغنى عن الحق شيئا .

٣ – لا يجوز أن يؤسس الحكم على الأشياء تبعاً للهوى الشخصى .

٤ – ألا يدعى علم مالا يعلم :(ولا تقف ماليس لك به علم) الاسراء / ٣٦.

---

(١) محمود عباس العقاد / التفكير فريضة إسلامية / ص ٨٥ ، ١٥٦ .

(٢) محمد عبده / رسالة التوحيد / ص ١٧٠ .

(٣) د. محمد السيد الجليند / تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين / ص ٢٤ – ٢٦ .

٥ - ألا يستمر على رأيه إذا ظهر أنه خلاف الحق .

وقد وجدت هذه الأصول تطبيقاتها فى بناء النص القرآنى الذى تفرد بصورة معجزة عن غيره من النصوص والكتب المقدسة وغير المقدسة ، باشتماله على ثلاثة عناصر شكلت جوهر خطابه العقل ، وهى :-

أولا : خلوه من التناقض والاختلاف .

وقد كان ذلك أحد العناصر التى لفت القرآن الأنظار إليها ، وطالب البشر بإمعان النظر فيها وجعلها أحد البراهين على إلهية مصدره ، وذلك فى قوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) النساء / ٨٢ ، وسمو القرآن عن التناقض والاختلاف يشمل كما يرى القاضى عبدالجبار السمو عن الاختلاف فى اللفظ أو المعنى أو الدلالة ، كما أن كل من يدعى فى القرآن شيئاً من التناقض أو الاختلاف إنما يؤتى من جهة قلة التأمل والمعرفة [١] ، وزوال الاختلاف والتناقض عن القرآن كما يرى أبو هاشم الجبائى لا يكون إلا من فعل الله لأن العادة لم تَجْرِ بذلك فى كلام البشر [٢]

ثانيًا : البراهين العقلية

وهى طرق متعددة استخدمها القرآن فى الاستدلال وضروب النظر العقلى والبرهنة اليقينية .

---

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ٣٩٤) .

(٢) السابق (١٦ / ٣٢٨) .

ومن هذه الطرق البرهانية التى استخدمها القرآن [١] :-

أ - الميزان القرآنى :

وهو تلك المقاييس العقلية والأمثال المضروبة فى القرآن لبيان الحقائق وطرق معرفة التماثل والاختلاف ، وذلك مثل قوله تعالى : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ! ؟) القلم / ٣٥ - ٣٩.

ب - قياس الأولى :

وهو إثبات الحكم للشئ بناء على ثبوته لنظيره أو لما الشئ أولى بالحكم به ، كما فى استدلال القرآن على إمكان المعاد بقوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس / ٧٨ - ٧٩ ، وقد أخذ القرآن بقياس الأولى فى قضية الصفات الإلهية ، فأثبت للخالق من باب الأولى كل كمال ثبت للمخلوق ، ونزه الخالق عن كل نقص ثبت للمخلوق ، إذ لما نسب المشركون له البنات ، نزهه القرآن عن ذلك من باب الأولى إذ كانوا يكرهون الإناث فكان أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، فقال تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى) النجم / ١٩- ٢٢ .

وفى إثبات التوحيد يجعل القرآن من قياس الأولى طريقه ، وذلك فى قوله تعالى:(ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى مارزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) الروم / ٢٨

---

(١) راجع فى ذلك : الدكتور محمد السيد الجليند / منهج القرآن فى تأسيس اليقين / ص ٧٩ - ٨٢ وأستاذنا الدكتور مصطفى حلمى / مناهج البحث فى العلوم الإسلامية / ص ٥٠ - ٥٦ .

إذ لا يرضى الرجل أن يكون مملوكه شريكا له فى مالــه ، فكيـف يرضى الإنسان أن يكون العبد المخلوق شريكا لله فى الألوهية وحق العبادة .

جـ – اللزوم :

ويعبر عن الحقيقة المعتبرة فى كل دليل ، فمن عــرف أن هــذا لازم لــهذا استدل بالملزوم على اللازم بغير ذكر لفظ اللزوم ، ويتضح هذا فــى قولــه تعالى : (أم خلقوا من غير شئ ؟ أم هم الخــالقون) الطــور / ٣٥ ، إذ لا يمكن لصحيح الفطرة أن يدَّعى وجود حادث بدون محدث ، ولا يمكنه تصور أن الحادث قد أحدث نفسه .

ثالثا : ما اشتمل عليه من أصول المعارف والنظريات والمباحث .

وقد عدَّ بعض المنظرين هذا الأصل وجهاً مستقلاً من وجوه إعجــاز القرآن ، فيقول الماوردى : " والوجه الخامس من إعجازه ما جمعه القــرآن من علوم لا يحيط بها بشر ، ولا تجتمع فى مخلوق ، فلم يكن إلا من عند الله المحيط بكل شئ علماً " [(١)] ، لكن إدراج هذا الوجه هنا تحت جانب الإعجــاز العقلى راجع لكون هذه المعارف المتضمنة فــى النــص القرآنــى تتوقــف الاستفادة منها والإلمام بها على جهد العقل وعمله فى استنباطها ، فيقوم العقل باستخلاص الأصول والبناء عليها : " حتى أن أهل كل علم يلتجئون إليه فــى أصول علومهم ويبنون عليه كتبهم ، فإن المتكلمين إنما بنوا الكلام فى التوحيد على ماذكره تعالى فى كتابه نحو قوله : (إن فى خلق الســموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) ..... واعتمدوا فــى التوحيــد والبعث والنشور والإعــادة وفــى حــدوث الأجســام وإثبــات الأعــراض

(١) الماوردى / أعلام النبوة / ص ٤٨ .

وفى وجوب النظر والتفكير على ماذكره الله تعالى فى كتابه مما يطول ذكره ،وهذه طريقة الفقهاء لأنهم بنوا الكتب على ماذكره الله تعالى فى كتابه ثم أهل اللغة والنحو ، عليه اعتمدوا فيما بسطوه من الكتب وشرحوه وأصلوه وأهل الفرائض بنوا الفرائض على الآيات المنزلة فيها " (١)

ولم تقتصر المعارف التى حواها القرآن على معارف الملة الإسلامية ، بل قد احتوى على معارف أخرى من علوم الأوائل مثل الطب والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة والزراعةوغيرها (٢) حتى قيل شعراً :

جميع العلم فى القرآن لكن تقاصر عنه أفهام الرجال

فيذهب الغزالى إلى أن سائر العلوم تنفرع عن القرآن ، فبعد أن يذكر علوم الطب والنجوم والهيئة والتشريح وعلوم وظائف الأعضاء وعلم السحر والطلسمات : يشير إلى علوم الأولين التى لا يُعرف عنها سوى تراجمها ، وإلى علوم لم تكتشف بعد ويرفع عنها النقاب وإلى علوم أخر ليس فى قوة إدراك البشر الوقوف عليها ، ويقول (٣) : " ثم هذه العلوم ماعددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ، فمن أفعال الله تعالى الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم : (وإذا مرضت فهو يشفين) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من

---

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ٣٢٩ - ٣٣٠) .

(٢) الألوسى / الجواب الفسيح (٢ / ٢٥٧) .

(٣) الغزالى / جواهر القرآن / ص ٢٨ - ٣٠ .

عرف الطب بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) وقال : (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال : (وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) وقال : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وقال : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل فى النهار وكيفية تكوّر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه ، ولا يعرف كمال معنى قوله : (يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها .

وقد أشار فى القرآن إليها فى مواضع ، وهى من علوم الأولين والأخرين وفى القرآن مجامع علم الأولين والأخرين " .

ويختم مقدمته موصياً : " فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والأخرين وجملة أوائله . وإنما التفكر فيه للتوصل من جملته إلى تفصيله " (١) .

وإلى نفس الرأى يذهب السيوطى أيضا ، فيقول مانصه : " قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شئ : أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن مايدل عليها ، وفيه عجائب

(١) الغزالى / جواهر القرآن / ص ٣٠ .

المخلوقات وملكوت السموات والأرض ، وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى " (١) .

وقد عارض الشاطبى هذا الرأى استناداً إلى مذهبه فى القول بأمية الشريعة وأنها ملائمة لحال أهلها من العرب الأميين ، فبنى على ذلك قاعدة هى " أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح " (٢) .

ثم يحمل آيات الكتاب الكريم التى تخبر بتضمنه أصول ومبادئ العلوم تصريحا أو تلميحا أو رمزاً أو دلالة عليها ، مثل قوله تعالى : (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) الأنعام / ٣٨ ، وقوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبانا لكل شئ) النحل / ٨٩ ، على مايتعلق بحال التكليف والتعبد ، وأن المقصود بالكتاب هو اللوح المحفوظ (٣) .

لكن تقييد الشاطبى لعلوم القرآن وقصرها على ماعرفه العرب أو ما تعلق بعلوم الشرع ومقتضيات التعبد أمر لا يستند إلى دليل قوى من النقل أو العقل أو الواقع ، وذلك إذا ما أخذت الأمور التالية فىالحسبان :

١ - أن دعوة القرآن ليست خاصة بالعرب حتى يناسب عقولهم ومعارفهم وحدهم ، بل دعوته وخطابه يعمان جميع البشر ، لذلك جاء خطابه على وجه

(١) السيوطى / الإتقان فى علوم القرآن (٤ / ٣٣) .
(٢) الشاطبى / / الموافقات (٢ / ٥٢) .
(٣) الشاطبى / الموافقات (٢ / ٥٣) .

معجز يستطيع الأميّ فهم تكليفاته وتشريعاته كما أن غير الأميّ يجد فيه مايناسب معرفته وعقله وما يلزمه الحجة والإيمان به . فلو كان خطاب القرآن قاصراً على ملائمة الأميّ لما خرّت له عقول أساطين العلماء من أبناء عصرنا الحديث الذين راعهم دقته واتفاقه مع علوم العصر كما سيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن وجه الإعجاز العلمى للقرآن .

٢ – أن أغراض القرآن الثلاثة (التوحيد ، والقصص ، والإخبار) تتجاوز حدود الأوامر التكليفية والتعبدية إلى مايتعلق بالإنسان والعالم والحياة ، فلو انصرف قوله تعالى : (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) ، وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تباينا لكل شئ) إلى الأمور التعبدية لاتقضى ذلك تفريط القرآن فى أمور لا تقوم حياة الإنسان المعيشية ومسؤوليته التكليفية وصلاح حاله إلا بها. وهذا لا يعقل .

٣ – أن واقع المسلمين يكشف عن ريادتهم البشرية وتفوقهم الحضارى فى مجالات العلوم والثقافة والاجتماع والعمران ، عندما جعلوا القرآن دستوراً عملياً لحياتهم منه ينطلقون فى عملهم وعلمهم .

٤ – أن آيات التكليف والتشريع فى القرآن عددها مائة وخمسون آية ، أما الآيات المتعلقة بالعلوم وحقائقها فبلغت سبعمائة وخمسين آية ، فهل جاء القرآن تبيانا لمائة وخمسين آية وفرط فى حق سبعمائة وخمسين ؟

٤ – أن القرآن خاتم الكتب السماوية ، ويقتضى ذلك تضمنه أدوات الفصل والحكم فيما يطرأ على حركة الكون والحياة الإنسانية من تغير أو مستجدات ، ولا شك أن أحد أهم هذه المستجدات هو التطور المعرفى والتقدم العلمى ، ويعنى ذلك أن تحقيق المرجعية للقرآن مرهون باشتماله

على أصول ومبادئ مايعنّ للإنسان من تساؤلات معرفية وما يقف عليه من علوم .

ولا تقتصر وجوه الإعجاز القرآنى على ماذكر من إعجاز بيانى وإخبارى وعقلى وتشريعى ، بل هناك مايسمى بالإعجاز القلبى وهو الأثر الداخلى الذى يتركه القرآن عند تلاوته أو الاستماع إليه ، لكن هذا الوجه يخرج عن حيز المناقشة لكونه أمراً ذاتيا ، كما أنه يختلف باختلاف البشر وأحوالهم فلاينضبط كما أنه لا يمكن إلزام المخالف به .

خامسًا : الإعجاز العلمى

ولأن طبيعة العصر الحاضر تختلف اختلافا بعيداً عن طبيعة الأعصر السابقة ، فإن الحاجة ماسة إلى وجه جديد من وجوه الإعجاز القرآنى يناسب طبيعة العصر ويلزم أهله الحجة كما لزمت السابقين الحجة بوجوه الإعجاز التى أمكن الوقوف عليها ، وإن كان عجز السابقين عن الإتيان بمثله يغنى المعاصرين ويكفيهم .

لكن لأن حجة القرآن باقية وتحديه على مدار الدهور وتعاقب الأزمان ، فإن الإعجاز – كما يقول الطبرى فى مقدمة تفسيره – واقع فى كل عصر والتحدى به لازم لأهل كل زمان[1] .

والإعجاز العلمى فى القرآن هو مما يناسب طبيعة العصر الحاضر الذى استغرقته ثورة الاكتشافات وباتت حركته رهينة الوسائل العلمية

(١) تفسير الطبرى (٣ / ١)

بمجالاتها المتعددة ، حتى بات العلم أحد أهم مقومات البقاء وأمضى أسلحة الصراع فى عالمنا المعاصر .

ونواحى الإعجاز العلمى فى القرآن تتعدد لتشمل معظم أو جميع مجالات العلم كالفلك والطب والجيولوجيا والزراعة وعالم النبات والحيوان والتناسل والاقتصاد والتجارة والتاريخ والحضارة والبحار .. الخ .

حتى أنه قد بات من المؤكد أن : " **القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث** " [1] .

وأن محمداً ﷺ : " **خلف للعالم كتاباً هو آية البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن الكريم وبين القوانين الطبيعية** " [2] .

مما دفع مؤرخ الأديان نينيان سمارت Ninian Smart فى موسوعته الضخمة (الأديان الكبرى)**أن يقرر أن الإسلام ليست له مع العلم خصومة ، بل على العكس قد فتح ذراعيه للعلوم العقلية والطبيعية ، فسار الإسلام والعلم فى طريقهما متساندين لا متخاصمين**[3].

ولا شك أن الذى قاد العلماء غير المسلمين إلى تلك النتائج الباهرة إلى جانب النتائج العملية للمقارنات بين نصوص القرآن ومعطيات العلوم

---

(١) موريس بوكاى / القرآن والتوراة والإنجيل والعلم / ص ١٣

(٢) أحمد عزت / الدين والعلم / ص ٢٤

(٣) Ninian Smart, Die Groβen Religionen, S : 259 - 260 .

الحديثة هو تقتهم فى النص القرآنى، وأن هـذا النـص موضـع الفحـص والمقارنة هو القرآن نفسه الذى كان يقرأه محمد ﷺ وأوحى إليه .

فقد أخضع أولئك الباحثون النص القرآنى لمعـايير علـوم تـاريخ النصوص ونقدها . يقول رودى بارت : " نحـن فـى هـذا نطبـق علـى الإسلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التى نشتغل بها المعيـار النقـدى نفسه الذى نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا "(1).

وانتهوا إلى أن القرآن قد بقى محفوظا من التحريف والتغيير وأنـه يعود بنصه إلى محمد ﷺ (2) :

فقرر نولدكه أن " **النـص القرآنـى علـى أحسـن صـورة مـن الكمال والمطابقة** " (3) ، وأكد لوابلوا الفرنسى : " **أن القـرآن هـو اليـوم الكتاب الربانى الوحيد الذى ليس فيه أى تغيير يذكر**" (4)، وقـال موريـس بوكاى : " **لم يتعرض النص القرآنى لأى تحريف من يوم أن أنـزل علـى الرسول ﷺ حتى يومنا هذا** " (5) ، وأثبت بلاشير فى كتابه (مدخل إلـى القرآن) أن : " **جميع التبليغات التى تلقاها محمد ﷺ صادرة عن الله ذاته وأن الله كان قد ثبتها فى لوح محفوظ** " . (6)

---

(1) رودى بارت / الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية / ص 10
(2) محمد حسين الصغير / المستشرقون والدراسات القرآنية / ص 88
(3) نقلا عن د . دراز / مدخل إلى القرآن الكريم / ص 39
(4) نقلا عن د . دراز / مدخل إلى القرآن الكريم / ص 40
(5) موريس بوكاى / القرآن والتوراة والإنجيل والعلم / ص 151
(6) د . محمد حسين الصغير / المستشرقون والدراسات القرآنية / ص 37

ولكل ذلك لم يجد أحد فلاسفة الروحانيات المسيحية المعاصرة بُــدًا من التسليم بأن : "**الإسلام هو الدين الموثّق الذى من خلالــه توثَّــق بقيــة الأديان** " [١].

ولا جدال فى أن تلك الثقة المطلقة فىسلامة نقــل وتواتــر النــص القرآنى تعود إلى وجه من وجوه الإعجاز القرآنى وهو إعجاز الحفظ ذلــك الذى تكفّل به الخالق سبحانه وتعالى فى قوله الكريم : (إنا نحن نزّلنا الذكــر وإناله لحافظون) الحجر / ٩ .

وقد لازم إعجاز الحفظ نزول القرآن على النبى ﷺ بجمع الآيــات وبيانها وتثبيتها فى قلب النبى ﷺ كما تشير الآية (لا تحرك بــه لســانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانــه) القيامة / ١٦ – ١٨

ثم امتد إلى الوقايــة مــن النســيان كمــايبين ســبحانه فــى ســورة الأعلى:(سنقرئك فلا تنسى) الأعلى / ٦

ثم إلى تيسيره للحفظ والذكر علــى المســلمين ، رجــالا ونســاء وأطفالا ، فيقول تعالى : (ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدكــر)القمــر / ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ثم فى مراجعة جبريل للنبىﷺ به فى عام وفاتــه ﷺ مرتين ثم فى جمعه من على الجلود وسعف النخيــل والأوراق بذلــك

(١) نقلا عن د . رشدى فكار / مقال بمجلة الأمة القطرية / ص ٤٥ – عدد ٦٧ .

المنهج التوثيقي الذى لا يعرف له العالم مثيلا أثناء خلافة أبى بكر ، ثم فى استنساخه فى عهد عثمان رضى الله عنه وحرق ماعداه من النسخ [1] .

وما من شك فى أنه لولا سبق هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآنى ما أتيحت الفرصة للكشف عن أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن ، والتى سنقتصر على ذكر أمثلة منها، لأن المقام لا يتسع لغير ذلك ، إذ إن آيات القرآن التى تعرض لحقائق وموضوعات العلوم الكونية تزيد على السبعمائة والخمسين آية بخلاف الآيات المتعلقة بعلوم الاقتصاد ، والسياسة ، والاجتماع وعلم النفس ، وفلسفة التاريخ ، ومناهج التشريع ... الخ .

وسنعرض هذه الأمثلة بحسب موضوعاتها ، وذلك على النحو التالى[2]:-

١ - خلق العالم

لم يقدم القرآن رواية واحدة متصلة عن خلق العالم ، بل ذكر جوانب متعددة عن هذه العملية فى مواضع متفرقة تحوى التفصيلات التالية :-

(١) راجع عملية جمع القرآن بمراحلها المتعددة لدى :

محمد عبدالعظيم الزرقانى / مناهل العرفان فى علوم القرآن (١ / ٢٣٩ - ٢٨٨)

(٢) اعتمدت فى تلخيص هذه الأمثلة على المصادر التالية بخلاف ماتقتضى الضرورة الإشارة إليه فى موضعه:

- موريس بوكاى / القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ، ما أصل الإنسان .
- د . محمد جمال الفندى / الله والكون
- محمد أحمد الغمراوى / الإسلام فى عصر العلم
- د . محمد الشرقاوى / القرآن والكون
- د . منصور حسب الله / القرآن الكريم والعلم الحديث
- كارل ساغان / الكون / سلسلة عالم المعرفة (١٧٨)
- روبرت م . - جورج ستانسيو / العلم فىمنظوره الجديد / سلسلة عالم المعرفة (١٣٤)

أ – **مراحل الخلق** ، وعنها يذكر القرآن : (الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) السجدة / ٤.وتمثل هذه الأيام الستة مراحل أو فترات طويلة من الزمن ، إذ يقول سبحانه عن اليوم : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) السجدة / ٥ ويقول: (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) المعارج / ٤.

وبهذا فإن يوم الخلق لا يعنى اليوم الذى نحسبه بأربع وعشرين ساعة ، بل يعنى مرحلة زمنية طويلة أو فترة من فترات الخلق .

ب – طريقة الخلق

يقدم القرآن خلاصة لظاهرتين أساسيّتين فى تشكيل الكون ، وهما قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) فصلت / ١١ ، وقوله : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى) الأنبياء / ٣٠.

وهنا إشارة إلى كتلة غازية وعملية فتق للكتلة الفريدة الأولى التى كانت ملتحمة الأجزاء .

جـ – طبيعة الخلق

يشير القرآن إلى تعدد السموات والأراضين والعوالم المخلوقة ، وذلك فى قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) الفاتحة / ٢ ، وقوله : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الطلاق / ١٢.

وبمقابلة التقريرات القرآنية عن عملية الخلــق بمعطيــات العلــوم الحديثة تتضح المطابقة بين مراحل الخلق ذات الفترات الزمنية الطويلة وبين تقديرات العلماء لعمر الكون منذ نشأته والتى تتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ مليــار سنة ، كذلك الأمر بالنسبة لنشاة الكون عن طريق الفتق الذى أسماه العلمــاء التفجير الاستثنائى أو الانفجار الكبير (The Big Bang) ، وأن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولّى فى العلم الحديث وبين الدخــان فــى آيــة فصلت ، وقد بين علم الفلك بمراقبه ومراصده وتحليلاته الرياضيــة وغــير الرياضية أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ومنها ، ليست فى هذا العــالم شيئاً مذكورا ، بل نعيش نحن البشر على حد تعبير كارل ساغان أستاذ الفلــك والمراصد على " ذرة من الغبار " تدور حول نجم رتيب فى أبعد زاوية مــن مجرة مظلمة تسبح فى فضاء كونى لو أُدخلنا إليه بالمصادفة فإن احتمــال أن نجد أنفسنا على أو قرب كوكب ما سيكون أقل من واحد فى مليار تريليــون تريليون أى ١ × ١٠^٣٣ , % .

<u>٢ – الفلك</u>

يحتوى القرآن على كثير من الإيضاحات حول علم الفلك ، تشمل :

أ – تأملات عامة فى السماء

يقول تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) الرعد / ٢ ، وهــو المبدأ الحاكم لعدم إطباق السماء على الأرض ، وذلك عــن طريــق أســاس التوازن القائم على التناسب الطردى بين الكتل والمسافات ، فكلمــا تبــاعدت الأجرام وهنت قوة جذب كل منها للأخرى .

ب - طبيعة الأجرام السماوية

يفرق القرآن بين الشمس والقمر فى قوله تعالى : (وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) نوح / ١٦ ، فيعبر عن الشمس بالسراج الوهاج وعن القمر بالنور ، ومن المعروف أن الشمس نجم ينتج باحتراقه الداخلى حرارة شديدة وضوءاً ، فى حين أن القمر ليس مضيئاً بذاته بل هو يعكس الضوء الذى يستقبله من الشمس .

جـ - حركة الشمس والقمر

يذكر القرآن حركة الشمس والقمر فى اتجاه معين ولزمن معين ، يقول تعالى : (سخَّر الشمس والقمر كلٌ يجرى إلى أجل مسمى) الرعد / ٢ ، لقمان / ٢٩ ، فاطر / ١٣ ، الزمر / ٥ ، ويقول : (والشمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم) يس / ٣٨ .

وتسمح المعطيات الحديثة بالتنبؤ بأنه بعد عدة مليارات من السنوات لن تكون ظروف النظام الشمسى على ماهى عليه اليوم بل يمكن توقع نهاية هذا النظام كما حدث بالنسبة لنجوم أخرى . أما عن جريان الشمس نحو مستقر لها ، فقد حدد علم الفلك سرعة جريان الشمس بـ١٩ كم فى الثانية تقريبا وأن هذا المستقر فى اتجاه نجم يطلق عليه (فيجا Vega) أو النسو الواقع كما ترجم إلي اللغة العربية .

د - مواقع النجوم

أقسم الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم بمواقع النجوم ، قال تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) الواقعة / ٧٥ - ٧٦، وللوقوف على سر عظمة هذا القسم يجب معرفة ما تمَّ كشفه من نتائج أبحاث

الفلكيين عن النجوم حتى الآن ، وهى تقرر أن كوننا حوالـــى ١٠٠ مليـار مجرة ، فى كل مجرة ١٠٠ مليار نجم تقريبا أى أن عدد النجوم يبلغ تقريبـا $١٠^{١١} \times ١٠^{١١} = ١٠^{٢٢}$ أو عشرة مليارات تريليون نجم .

أما المسافات بين هـــذه النجـوم والتـى تقـاس بالســنة الضوئيـة والسنة الضوئية هى المسافة التـى يقطعـها الضـوء بسـرعته المعروفـة (٣٠٠٠٠٠ كم / ث) فى زمن قدره سـنة أرضيـة كاملـة، أى أن السـنة الضوئية = $٣٠٠٠٠٠ \times ٦٠ \times ٦٠ \times ٢٤ \times ٣٦٥ \frac{١}{٤}$ = ١٠ تيريليون كم فإن الفلكيين استطاعوا تحديد البعد التقريبى لبعض النجوم اللامعة عـن الأرض ، كما يتضح من الجداول التالى :

اسم النجم	البعد عنا بالسنين الضوئية
الشعرى	٩
يروسيون	١١
الطائر	١٧
فيجا	٢٧
اركتوروس	٣٦
كابيلا	٤٦
الدابران	٦٨
منكب الجوزاء	٥٢٠
انتاريس	٥٢٠
ذنب	٦٠٠
ريجيل	٩٠٠

وقد أتاح مرصد جبل ماونت بالومار فى أمريكا تصوير مجرات تقع على مسافات أكبر من ٣٠٠ مليون سنة ضوئية باستخدام تليسكوب ذى مـرآة قطرها ٢٠٠ بوصة .

٣ - الأرض

تنوعت الآيات القرآنية التى تعالج موضوع الأرض من حيث :

أ - دورة الماء والبحار

يقول تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فـــى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) الزمر / ٢١ ، ويقول: (مـــــرج البحريــن يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) الرحمن / ١٩ ، ٢٠

فبالنسبة للآية الأولى يؤكد علم الهيدرولوجيا صحـــــة دورة حركـــة المياه كما صورها القرآن ، وذلك بتبخر ماء المحيطات بواســـطة الإشـــعاع الحرارى ، فيتصاعد بخار الماء نحو الجو ويشكل سحبا تنقلها الريـــاح إلـــى مسافات مختلفة ثم يتساقط المطر بعد تجزء هذه السحب لتعود تلك المياه إلى المحيطات والبحار والأنهار فتتكرر الدورة ، أما الماء الذى يسقط على التربة فيمتص بواسطة النبات ويتسلل جزء منه إلى التربة ويصـــب عـــن طريـــق المجارى المائية فى الينابيع والعيون .

أما عن البرزخ أو الحجر المحجور بين الماء العذب والماء المـــالح فهو الحاجز الناشئ عن الضغط التنافذى الموجه من الماء العذب إلى المـــاء

المالح ، فيجعل مياه الأنهار تمتد فى البحار مسافات طويلة دون حدوث العكس ، وهو الناتج أيضا عن قانون الجاذبية الناشئ من انحدار مستوى مياه البحار عن مستوى مياه الأنهار ، مما يجعل مياه الأنهار تندفع بشدة نحو البحار فيكون اتجاه تدفق المياه من المستوى الأعلى للأدنى .

ب - تضاريس الأرض

يتحدث القرآن عن تشكل الأرض من بساط مفروش وجبال راسيات ، يقول تعالى:(والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) نوح/١٩- ٢٠ ويقول : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) النبأ / ٦ ، ٧ .

وذلك مايتفق ومعطيات علم الجيولوجيا الذى بين أن تركيب الأرض من قشرة سطحية باردة وصلبة ومستوية تتخللها تعرجات هى أصل سلاسل الجبال التى تعد بروزا مرتبطا فى العمق بطبقات الأرض التحتية التى يزيد سمكها عن ٦٠٠٠ كم ، وتعمل كمثبت للقشرة الأرضية .

جـ - الثروات المعدنية

أشار القرآن إلى الحديد مثلا فى قوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)الحديد / ٢٥.

والبأس الشديد هنا قد يشير إلى استخدام الحديد فى الصناعات العسكرية أو المدنية التى تكون أدوات للصراع والتنافس الاقتصادى ، أو إلى الخواص المغناطيسية القوية للحديد الذى تكون الطبقات السفلى السائلة منه أعلى حرارة من الطبقات العليا مما يحدث تيارات حمل فى اتجاه رأسى تؤدى مع دوران الأرض حول محورها إلى توليد الطاقة

اللازمة لانتاج التيار الكهربى الذى يولد بـــدوره مجـــالاً مغناطيســيًا قويًـــا لكوكب الأرض .

أما إشارة القرآن إلى الحديد بأنه أُنزل ، فتطابق ما تقرر من كــــون الحديد قد تم طبخه فى الماضى البعيد فى باطن نجم معين عند درجة حــرارة تصل إلى آلاف الملايين من الدرجات، ثم قُذف به إلى بـــاطن الأرض عنـــد انفجار النجم (سوبر نوفا) .

د – طبقات الغلاف الجوىّ

تحدث القرآن عن بعض الظواهر الحادثة فى الجو ممـــــا أيدتـــه المعـــارف الحديثة وذلك مثل قوله تعالى(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصّعـــــد فـــى الســـماء) الأنعام/ ١٢٥.

فقد بات مقطوعاً به أن كميات الأكسجين اللازم للتنفس تقـــل كلمـــا ارتفع الإنسان عن سطح البحر ، بصورة قد تؤدى إلى الاختناق إذا مـــا زاد هذا الارتفاع عن عشرة كيلو مترات مالم يكن الإنسان محمياً داخـــل غـــرف مجهزة أو مزوداً بأنابيب للأوكسجين .

<u>**٤ – خلق الإنسان**</u>

انتهى علماء الأجنة والتناسل والمســـالك البوليـــة إلـــى أن عمليـــة التناسل البشرى تتم على الوجه التالى :–

تبدأ بانفصال بويضة عن المبيض ، ثم تخصيبها بعامل مخصب هو حيـــوان منوى ذكرى ، عبارة عن خلية واحدة (أى كمية ضئيلة جداً) ، ويُنتج هـــذا

السائل المنوى بواسطة الخصيتين ويُخزّن فى الحويصـلات المنويـة وفـى القنوات التى تؤدى فى النهاية إلى المسالك البولية ، وتوجـد غـدد متفرقـة بطول هذه المسالك تضيف إلى السائل المنوى إفرازات إضافية غير مخصّبة

وفى منطقة معينة من جهاز الأنثـى التناسـلى تعشـش البويضـة المخصبة ، حيث تعلق بهذه المنطقة المسماة بـالرحم وتدخـل فـى سـمكه ثم فى عضلته .ويبدو الجنين فى هذه الحالة على شـكل كتلـة مـن اللحـم الممضوغ ، ويتم فى هذه الكتلة تدريجيا وعبر مراحل متوالية ومعروفة تكوّن الهيكل العظمى الذى ستحيط به العضلات والجـهاز العصبـى والـدورى ، وكذلك الأحشاء وما إلى غير ذلك .

وتلك هى بالضبط المعلومات التى ذكرها القرآن عن عملية التناسـل وذلك فى النقاط التالية :-

أ - الإخصاب بفضل كمية ضئيلة جدا من الماء

يقول تعالى :(خلق الإنسان من نطفة) النحل / ٤ ، ويقول : (ألـم يـكُ نُطفة من منىٍّ) القيامة / ٣٧ ، ويشير القرآن إلى مكان اسـتقرار النطفـة الآمن بقوله (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) المؤمنون / ١٣ ، وهـذه أدق صفة لوصف الرحم المحصن جيدا بواسطة عظام حوض المرأة .

ب - طبيعة السائل المخصّب

يذكر القرآن اثنتين من صفات هذا السائل وهما ، أنه ماء دافق وأنه خليط من عناصر متعددة ، وذلك فى قوله تعالى : (خلق من ماء دافق) الطـارق / ٦ ، وقوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) الإنسان / ٢ ، ومعلوم أن ماء الرجل يخرج بطريق الدفق ، وأنه يتشكل من إفرازات تأتى من الخصيتيـن ،

ومن الحوصيلات المنوية ، ومن البروستاتا ، ومن الغدد الملحقة بالمسالك البولية .

جـ- تعشيش البويضة فى الرحم

وهنا يشير القرآن إلى أمرين : أولهما ضرورة قرار البويضة فى الرحم ، يقول تعالى : (ونقرُّ فى الأرحام مانشاء إلى أجل مُسمًّى) الحج / ٥ ، والثانى أن تعشيش البويضة فى الرحم يكون عن طريق التعلق. يقول تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) العَلَق / ١ - ٢ ، ويقول (ألم يكُ نطفةً من منيٍّ يُمْنَى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى).

د - تطور الجنين

وهو مايصفه القرآن بمنتهى الدقة فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين)المؤمنون / ١٢ - ١٤.

ويمكن القول بأن نواحى الإعجاز العلمى التى سبقت الإشارة إليها لهى أبلغ رد على الذين يقولون بأن القرآن نزل فى القرن السابع الميلادى فى شبه الجزيرة العربية ويجب أن يفهم فى هذا الإطار فقط

فأين حضارة شبه جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادى من تلك العلوم والمعارف التى حواها القرآن ولم يُكْشف عن بعض منها إلا فى القرن العشرين !؟

المبحث الثانى

المعجزات

اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا

ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر

ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر

(القمر / ١ – ٤)

المعجزة هى كل فعل خارق لعادة البشر مما يعجزون عن الإتيان بمثله ولا يُقْدِر الله عليه إلا الأنبياء [١] .

وقد أُوتى النبى محمد ﷺ من المعجزات وجمع له من الآيات مالم يُجْمَع لأحد من الأنبياء قبله ، ولم يعط أحد مثله ، فكان لذلك أوضحهم دلالة ، وأعمهم رسالة ، ولذلك لم يعط الله نبياً من الأنبياء معجزة إلا أعطى نبينا محمداً ﷺ مثلها أو أوضح منها ، أو مايقاربها. [٢]

(١) – القاضى عبدالجبار / شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٨ ، المغنى (١٥ / ١٩٧ – ١٩٩)
– الإيجى / المواقف / ص ٣٣٩ .
– ابن حزم / الفصل (١ / ٦٥ – ٦٦) .
– الآمدى / المبين / ص ١٢٢ .
– ابن خلدون / المقدمة / ص ٨٦ .
(٢) القرطبى / الإعلام / ص ٣٤٨ .

وهناك جهود محدثة لوضح تعريف جديد للمعجزة ، باعتبار أنها أمر خارق لعادة الخلق أجمعين عدا الملائكة والأنبياء والأولياء خرقا حقيقياً فى أنفسهم أو فى غيرهم يجريه الله على يد مدعى النبوة تصديقاً له. (١)

وقد تعرضت معجزات النبى ﷺ لموجة من التشكيك والإنكار من قبل طائفة من القدماء والمحدثين كما بينا ذلك فى الفصل الأول .

ويتبلور موقف هؤلاء المتشككين فى اتجاهين :

(١) جمال أبو فرحة / المعجزة وحجيتها / ص ٢١ - ٤٢ .
ومثل هذا التعريف لا يضيف جديداً الى ماذكره المتكلمون من قيود المعجزة وشروطها، فغاية ماهنالك أنه يراعى فى الحسبان تقسيم المعجزة الذى ارتضاه والذى سنناقشه بعد قليل ، أما قوله هى أمر وتعليله لذلك بالرغبة فى شمول القسم المنعى من المعجزات ، فليس ذلك مما يعز على الاعتراض ، إذ المنع فعل أيضا من جهة الله تعالى كسائر أقسام المعجزات ، وقوله خرقا حقيقياً فهذا من سمات دلائل النبوة عامة وليس حدّاً فى تعريف المعجزة، أما قوله " عدا الأولياء " فلا يصح إذ المعجزة خارقة لعادة الأولياء أيضا ولا يستطيعون معارضتها ، وإن كان الله يجرى على أيديهم بعض الخوارق تصديقاً لنبوة من اتبعوه وهذه القيود هى بعينها التى أوردها الأشاعرة فى تقنينهم للمعجزة كما رصدها الدكتور أمين راشد فى بحثه مشكلة السببية فى الفكر الإسلامى (د. أمين أمين راشد / مشكلة السببية فى الفكر الإسلامى / ص ٣٦٧ - ٣٨٨) .
أما تقسيم المعجزة الذى تبناه صديقنا العزيز والذى اضطر بسببه إلى طرح تعريف المعجزة على النحو المشار إليه، فيقوم على تقسيم المعجزات إلى حسية ومعنوية (ص١٥٤) ، وهو يرفض تقسيم ابن تيمية للمعجزات إلى ما مجاله : العلم ، القدرة ، الغنى ، واصفا هذا التقسيم بأنه لا معنى له (ص ٥٣) ، وأنه تقسيم باطل لا فائدة منه (ص١٥٤) .
وللحق أن تقسيم ابن تيمية للمعجزات غير المسبوق إليه لهو أدق وأفضل تقسيم معروف للمعجزة ، إذ هو التقسيم الوحيد القادر على استيعاب جميع أنواع المجزات .
أما تقسيم المعجزة إلى حسىّ ومعنوى فيلاحظ عليه مايلى :-
١ - أنه محاولة ليست بالجديدة إذ قد قسم ابن كثير المعجزات من قبل إلى حسىّ ومعنوىّ .
٢ - إذا كان المقصود بالحسى مايدرك بالحواس فإن مايقابله هو العقلى وليس المعنوى ، إذ إن الحواس والعقل هما أداتا المعرفة . أما إن كان المقصود بالمعنوى ما هو خلاف العادى من المعجزات ، فإن مايقابل المعنوى هو المادى وليس الحسىّ.
٣ - أن هذا التقسيم يصعب معه تصنيف المعجزات ويعجز عن استيعاب أنواعها المتعددة ، مما يؤدى إلى الاضطراب والخلط، وهذا ماوقع فيه صديقنا حينما عدّ القرآن معجزة حسية معنوية(ص١٥٥،١٧٥) .

الاتجاه الأول : القول باستحالة المعجزة لكونها قدحا فـــى العقـل وإنكـاراً لبديهيات العقول ، وإنكاراً لقوانين الطبيعة ، ومن ثـمّ فـهى ليسـت دليـلاً على صدق خاتم الرسل [(١)].

وهذا القول باستحالة المعجزة بسبب كونها قدحاً فىالعقـل وإنكـاراً لبديهيات العقول وقوانين الطبيعة لهو القدح فـى العقـل عينـه والسـخرية من ملكات هذا العقل وطاقاته ، وذلك لأن:

١ - وقوع المعجزة ممكن عقلا إذ لا يمتنع أن يطير الإنسـان فـى الـهواء ويمشى على الماء ويقطع المسافات الطويلة فى الزمن القصير .

٢ - أن وقوع المعجزة ليس محالا عقلا أو مستلزماً للمحال كـالجمع بيـن النقيضين ، ورفعهما ، والدور ، والتسلسل [(٢)] .

٣ - أن المحال يوجد فى الأذهان لا فى الأعيان ، يقـول هـو كسـله ي : " أنا لا أعلم محالا غـير التنـاقض ، ولـهذا يوجـد محـال منطقـى ولا يوجد محال طبيعى"[(٣)].

٤ - أن القوانين الطبيعية ليست ناشئة من طبيعة الأشياء حتى يمكن القـول بأنه لا يمكن تغييرها أو الخروج عليها ، بل يرى أميـل سسـه " إن العلـم مع كونه ترقى كثيراً فىمطالعة الطبيعة لم يثبت فى وقت من الأوقات أن القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية " [(٤)] .

---

(١) ابراهيم مدكور / فى الفلسفة الإسلامية / ص ٩٦ - ١٠٧ .
- حسن حنفى / من العقيدة إلى الثورة (٤ / ٦٧ - ٨٠) .
(٢)مصطفى صبرى / القول الفصل / ص ٢٥ .
(٣)مصطفى صبرى / القول الفصل / ص ٢٨ .
(٤)مصطفى صبرى / القول الفصل / ص ٢٨ .

٥ – أن تصور وقوع المعجزات ليس بأصعب من تصور وجود العالم عند من لم يشاهده ، يقول ويليام استانلى جودن من كبار المنطقيين الإنجليز : " القدرة التى خلقت العالم لا تعجز عن حذف شئ منه أو إضافة شئ إليه ، ومن السهل أن يقال عنه إنه غير متصور عند العقل ، لكن الذى يقال عنه إنه غير متصور ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم " (١) .

فإذا ما أضفنا إلى مبدأ الإمكان العقلى ومبدأ عدم حتمية القوانين الطبيعية أمراً آخر مؤداه أن وقوع المعجزات من الأمور المجربة المتحققة فى الواقع ، عاشها وعاينها الجمهور الكثير من البشر ونقلوها إلينا بطرق موثوق بها مما سنعرض له عند النظر فى الاتجاه الثانى بعد قليل ، فإنه يمكننا تنحية القول باستحالة المعجزة لفقده مبررات وجوده وحجج إثباته.

الاتجاه الثانى : تقسيم معجزات النبى ﷺ قسمين (٢) :

القسم الأول ماهو إلا صدى مضخم لمعجزات منسوبة إلى الأنبياء السابقين ، وذلك مثل تخلل الماء من بين أصابع النبى – ﷺ – الذى يذكر بتفجير موسى الماء من الصخر ، كما يذكر إطعامه الجماعة الكثيرة من يسير الطعام ، بتكثير عيسى للأرغفة القليلة وإطعام الجم الغفير ، وكذلك الشأن فى ردّه الشمس إذ فات وقت الصلاة على غرار توقيف يشوع الشمس فى كبد السماء مدة يوم كامل .

---

(١) السابق / ص ٢٥ .

(٢) عبدالمجيد الشرفى / الفكر الإسلامى فى الرد على النصارى / ص ١٧٥ – ١٧٦ .

أما القسم الثانى وهو سائر المعجزات التى لا شبه بينها وبين معجزات الأنبياء السابقين فهى أثر لنزعة متأصلة فى مختلف الحضارات العتيقة تعرف بالكونية " Cosmologie " وفيها يتصل الإنسان بالقوى الغيبية والطبيعة اتصالا وثيقا لا معنى فيه للمفارقة الإلهية وجريان الطبيعة حسب قوانين خاصة .

وينطوى هذا التقسيم فى الحقيقة على مطعنين فى معجزات النبى ﷺ هما :

١ - المطعن الأول : أن عدداً من هذه المعجزات وهو المماثل لمعجزات السابقين قد أخذه المسلمون من الكتاب المقدس ونسبوه إلى محمد ﷺ ، إما نصاً وإما بتصرف وتعديل .

ولا شك أن مثل هذا المطعن يصطدم بحقيقة مرة هى تاريخ ترجمة ونقل الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، والذى تقطع دائرة المعارف الدينية بصدده أن أقدم ترجمة كاملة للكتاب المقدس قد تمت فى القرن العاشر الميلادى ، وأن أقدم شذرات مترجمة إلى العربية عثر عليها لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن التاسع الميلادى (١) ، بينما يذهب G. Graf فى موسوعته " تاريخ الأدب المسيحى العربى " إلى أن أقدم نص ترجم إلىالعربية يعود إلى القرن الحادى عشر الميلادى الخامس الهجرى (٢) ، ومعلوم أن تدوين السنة والتصنيف المنهجى فيها

---

(١) Thealogische Realenenzyklopüdie, 6.577 - 578

(٢) G. Graf, Geschichte der christlichen arabischen Literatur (1 / 142 , 224) .

يسبق ذلك التاريخ بكثير ، إذ لم يكد القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ينتصف حتى كانت مصنفات الحديث قد ظهرت كمصنف عبدالرازق (ت ٢١١ هـ)، وعبدالله بن المبارك (ت ١٨١هـ) ، وسفيان بن عينية (ت ١٩٧ هـ) ، وسفيان الثورى (ت١٦١هـ) ، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) .... وغيرهم ، وهذه المصنفات كانت مصنفات رواية تجمع بين الموضوعات المختلفة والآثار المتعددة ويغلب عليها طابع الجمع دون العناية بالتمييز بين الصحيح وغيره [١] .

لكن ظهرت إلى جانب هذه المصنفات كتب متخصصة فى جمع السنة النبوية بمنهج نقدى يفرق بين الصحيح وغيره ، ولا يختار إلا الصحيح ومن هذه الكتب ما عرف بالجوامع المبوبة كالجامع الصحيح للبخارى ومسلم .. ، ومنها ما عرف بالمسانيد كمسند الإمام أحمد ..، ومنها ماعرف بالمعاجم كمعجم الطبرانى ، ومنها ماعرف بالمستدركات كمستدرك الحاكم[٢].

٢ - المطعن الثانى : أن هذه المعجزات أساطير وخرافات ومحض افتراء ، اختلقها المسلمون نتيجة سيطرة الوهم والخيال الناشئ عن الرغبة فى تفسير الوجود وحل لغزه فى غيبة من الدين وبعيداً عن مساعدة الوحى .

ولا شك أن هذا المطعن يمثل شهادة بينة علىجهل صاحبه بطبيعة الإسلام عامة وبطرق تلقى الأخبار وجمعها لدىأهله على وجه الخصوص .

(١) همام عبدالرحيم سعيد / الفكر المنهجى عند المحدثين / ص ٦٨ .
(٢) السابق / ص ٦٩ - ٧٠ .

فالسمة المميزة للدين الإسلامى هى ربانيته فكل حقائق الإسلام وعقائده ربانية المصدر ومن طريق الوحى والنبوة كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن ختم النبوة فى الفصل الأول .

أما طرق تلقى الأخبار وجمعها لدى المسلمين ، فلم يعرف مثلها قط لدىالأمم السابقة فى درجة التحرى والتثبت والدقة ، وعلى وجه الخصوص مايتعلق منها بالقرآن والسنة النبوية، حتى أن المسلمين يعلمون كل ما نقل عن النبى ﷺ من قرآن وسنة ، مَنْ سمعه من النبى ﷺ ؟ ومتى ؟ وفى أية مناسبة ؟ ومن أخذه عن ذلك الصحابى من التابعين؟ ومن تلقاه عن التابعين ودرجة اتقانه وحاله فى الأمانة والضبط ولقد أسس المسلمون علماً مستقلا بهذا الخصوص أسموه " الجرح والتعديل " لم تسبقهم إليه أمة أخرى .

وما يحتجُّ به المسلمون من معجزات نبيهم قد نقله الجمهور الغفير ممن يمتنع تواطؤهم على الكذب واشتهر بين المسلمين ودوّن فى كتب طوائف علمائهم المختلفة متواتراً تواتراً يفيد العلم اليقينى من طرق عدة سبق بيانها .

فالمعجزات التى ظهرت على النبى ﷺ نُقلت على أضرب ثلاثة:-

أولها : المتواتر أو المستفيض ، وهذاالضرب يكون العلم به إما باضطرار وإما باستدلال(١) .

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤١٥)

الثانى : ماظهر واشتهر ، ويُعلم ببعض الطرق التى منها تُعلم صحة الأخبار (١) .

وهذان النوعان من الأخبار أُنشد فى إفادتهما العلم اليقينى البيتان التاليان:

تأوَّبنى همٌّ من الليل مُنْصِبُ وجاء من الأخبار ما ليس يَكْذِبُ

تظاهَرْنَ حتى لم تكن لىَ ريبة ولم يك فيما أخبروا مُتَعَقَّبُ

الثالث : ما ينقل نقل الآحاد ، وهو ضربان (٢) :

الضرب الأول : أن يقترن به مايوجب العلم بمضمونه ، وذلك من خمسة أوجه ؛ الوجه الأول : أن يصدقه عليه من يُقطع بصدقه كالرسول ﷺ ، أو من أخبر الرسول - ﷺ - بصدقه ، فيعلم به صدق المخبر وصحة الخبر .

الوجه الثانى : أن تجتمع الأمة على صدقه فيعلم بإجماعهم أنه صادق فى خبره .

الوجه الثالث : أن يجمعوا على قبوله والعمل به فيكون دليلا على صدق خبره ، الوجه الرابع : أن يكون الخبر مضافاً إلى حال قد شاهدها عدد كثير وسمعوا رواية الخبر فلم ينكروه علىالمخبر فيدل على صحة الخبر وصدق المخبر ، الوجه الخامس : أن تقترن بالخبر دلائل العقول فإن كان مضافاً إليها كان صدقاً لازما ؛ لأن ما وافقها لا يكون إلا

وانظر : شرح الأصول الخمسة / ص ٥٩٥ - ٥٩٧ .

(١) السابق .

(٢) الماوردى / أعلام النبوة / ص ٧٥ .

حقاً ، وإن كان مضافاً إلى غيرها لم يدل على صدق الخبر ، وإن أوجب صحة ماتضمنه الخبر .

والضرب الثانى : أن ينفرد خبر الواحد عن قرينة تدل على صدقه فهو أمارة توجب الظن ولا تقتضى العلم ، لكن إذا تطاول عليه الزمن فلم يُعارض بردٍّ ولا مخالفة ، وتكرر ما فىمعناه مما يوافقه صار المجمل متواتراً وإن كان الأفراد آحاداً .

ولما كانت معجزات النبى ﷺ قد استغرقت جميع أنواع المعجز مما يضيق المقام عن استيعابه ، سنقتصر على تسجيل أمثلة مما هو فى أعلى درجات الصحة لبيان أنواع المعجزات التى وقعت لمحمد ﷺ ، وسنتناولها حسب التقسيم التالى:-

أولا : معجزات القرآن .

تحتل معجزات القرآن قيمة كبرى فىهذا المقام فهى ليست فقط من دلائل نبوته ﷺ ، بل هى أيضا ضرورية للرد على دعوى أهل الكتاب أن القرآن يخلو من ذكر معجزة للنبى ﷺ تؤيد نبوته (١) .

ومعجزات القرآن نوعان :

أ - **الوقائع** ، وذلك مثل :-

(١) تيودور أبو قرة / ميمر فى وجود الخالق والدين القويم / ص ٨٥ .
- على بن رين الطبرى / الدين والدولة / ص ٢٣ .
Adel Theodore Khoury, Der theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam, S: 38 - 39 .

١ - **انشقاق القمر** ، يقول تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر ، فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شئ نكر ، خشعًا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) القمر / ١ - ٧ .

وهى من أكبر المعجزات الفلكية حيث سأل كفار قريش النبى ﷺ آية وهو بمنى ، فأراهم انشقاق القمر ، الذى صار فرقتين حتى رأوا " حراء " بينهما .

وقد كانت هذه الآية على وجه الخصوص محلا لمطاعن الطاعنين ومثيرى الشبهات ، إذ زعموا أن وقوعها غير ممكن ، لأنها لو وقعت لعلم به أهل الأرض من غير العرب ولحكوا ذلك وانتشر فيما بينهم.

وقد أجيب علىهذه الشبهة بما يلى من وجوه [1] :

الأول : أن انشقاق القمر كان فىالليل وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشى والتردد فىالطرق لا سيما فى موسم البرد ، فلا يكاد يعرف من أمور السماء فى هذا الوقت شيئاً إلا من انتظره واعتنى به ، وذلك كشأن خسوف القمر فإنه يكون وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم به أحد .

---

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ٤١٩)
= القرطبى / الإعلام / ص ٣٤٨ - ٣٥٠
= رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١٠٣٨ - ١٠٤١)

الثانى : أن انشقاق القمر لم يكن قد امتد لفترة طويلة يتمكن معها الناظر أن يذهب إلى غيره فيوقظه من نومه ، أو ينبهه ويريه .

الثالث : أنها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العالم لينظروها فى وقتها ويروها كمايرون مطالع الأهلة فى المناسبات الدينية (هلال رمضان ، والعيدين) والكسوف والخسوف فى أوقاتها لأجل كونها متوقعة الحصول ؛ لذلك رأى المعجزة من وقع نظره إلى السماء فىهذا الوقت وأقر بحدوث الانشقاق ، لكن نسبه بعضهم إلى السحر .

الرابع : أن هناك بعض الأقاليم خارج شبه الجزيرة العربية قد رأت انشقاق القمر فسجلته كتب بعض مؤرخى الهند ، وأُرّخ به لبناء بعض الأبنية فى الهند

الخامس : أنه قد يحول بين الرائى والقمر فى بعض الأمكنة سحاب كثيف .

السادس : أن اختلاف المطالع يحدث معه أن يطّلع أهل بلد على ما لا يطلع عليه آخرون ، لذلك يحدث الخسوف فى بعض البلاد دون بعض ، كما أن القمر يُرى فى بعض البلاد التى يغشاها الليل ، بينما يجلّى النهار بلاداً أخرى

السابع : أن عدد من يمكن أن يكون نظرهم قد وقع على هذه الحادثة فى غير بلاد العرب قلما يبلغ حد الكثرة التى يتأتى معها اليقين ، لذلك فمن الطبيعى ألا يكون عدد من روى تلك الحادثة معتبراً عند المؤرخين فى شأن كهذه الواقعة العظيمة ، وربما حملوا رواية العوام فى ذلك على تخطئة الأبصار ، أو على نوع من الخسوف .

الثامن : أن منكر نبوة محمد ﷺ لا يعقل إذا علم بوقوع تلك الحادثة وأنها لتأييد نبوته ، أن يسجلها ، بل المعقول أن يبالغ فى إخفائها وعدم ذكرها أو كتابتها .

ومعلوم أن ذلك قد وقع للمسيح الذى تجاهلت ذكره كتب مؤرخى اليهود ، حتى أنك لا تجد كتاباً خلاف كتب النصارى فيه ذكر لظهور المسيح أو دعوته

وقد روى الإمام مسلم فىصحيحه أن عمر بن الخطاب قد سأل أبا واقد الليثى : "ماكان يقرأ رسول الله ﷺ فى الأضحى والفطر فقال : كان يقرأ فيها بـ (ق)، واقتربت الساعة وانشق القمر ".

فلو لم يكن القمر قد انشق لأسرع الناس بتكذيبه ﷺ .

٢ - **الإسراء والمعراج** ، وفيه يقول تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) الإسراء / ١ .

وكان إسراؤه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وهى مسافة تحتاج فيها الإبل إلى مسيرة شهر وقطعها هو فى ليلة واحدة ، ولما أنكرعليه قومه إسراءه إلى بيت المقدس وطالبوه البيّنة على دعواه أجابهم بأمرين[1]:

أولهما : وصف لهم بيت المقدس وصفاً دقيقاً مع أنه لم يكن قد زاره قبل ذلك

---

(١) تفسير القرطبى (٦ / ٣٨٢٥)- تفسير ابن كثير (٣ / ٢١ - ٢٢) .

الثانى : أخبرهم عن قافلة لهم قادمة من هذا الطريق ، فوصف لـــهم حالـــها ومكانها وموعد قدومها وجهته . فكان كما أخبر به .

وحادثة الإسراء ثابتة فـــى جميـــع مصنفـــات الحديـــث [١] ، وقـــد تواترت الروايات فيها عن عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وابـــن مسعود ، وأبى ذر ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وابـــن عبـــاس ، وعبدالله بن عمر ، وجابر ، وحذيفة ، وأبى أمامة ، وأم هـــانئ ، وعائشـــة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق [٢] ، ولثبوت هذه المعجـــزة وأهميتـــها فـــإن القاضى عبدالجبار يصفها بقوله: " لو لم يكن له معجزة ســـواها لكفـــاه فـــى دلالتها على نبوته " [٣] .

لكن قد يُعترض عليها بأن ذلك كان ، رؤيا منامية ، فكان الإســـراء بالروح لا بالجسد ، ويجاب على ذلك بأمور منها [٤] :-

الأول : أن الله تبارك وتعالى قد أخبر عن ذلك بقوله (الذى أسرى بعبـــده) ولم يقل بروح عبده ، ولفظ العبد يشمل الروح والجسد معا كما أن الإســـراء يعنى المسير ليلاً ، ولا يقال لمن يمشى نائماً إسراء .

الثانى : لو كان المقصود بالإسراء الرحلة فى النوم ، لما كان فى ذلك آيـــة أو معجزة تستحق تشنيع قريش وتكذيبها ، أو ارتداد بعض ممن كـــانوا قـــد أسلموا.

---

(١) تفسير القرطبى (٦ / ٣٨٢١) .
(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٤) .
(٣) القاضى عبدالجبار / تثبيت دلائل النبوة / ص
(٤) تفسير القرطبى (٦ / ٣٨٢٤ - ٣٨٢٥)
- تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢ - ٢٣) .

الثالث : أن أم هانئ بنت أبى طالب ماكانت لتخشى عليه تكذيب قريش وإيذاءهم لو أن الأمر كان مناماً لا يقظة .

٣ - **تحدى اليهود بتمنى الموت** ، يقول تعالى : (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليهم بالظالمين) البقرة / ٩٤.

وقد كان ذلك من أعجب الأمور الخارقة ، إذ مع حرص اليهود على تكذيبه ﷺ ، فلم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمنى الموت .

٤ - **كفاية المستهزئين** ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة يستهزءون بالنبى ﷺ ويؤذونه ، وهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة والأسود بن عبد يغوث والحارث بن الطُّلاطلة ، حيث أنزل الله تعالى فيهم قوله : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) الحجر / ٩٤ - ٩٦.

فمرّ به الأسود بن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار ، ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات حَبَناً ، ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين فانتقض به فقتله ، ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته ، ومرّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله [١]

(١) تفسير القرطبى (٦ / ٣٦٧٨)

٥ - **تأييده بالملائكة** ، وذلك كما حدث يوم بدر حينما قاتلت ألف من الملائكة إلى جانب المسلمين ، يقول تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) الأنفال / ٩.

ويروى الإمام مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب قال :

" لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ثم مدّ يديه وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللهم آتنى ماوعدتنى الله إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد فى الأرض فما زال يهتف بربه مادّاً يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، فقال : يانبى الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ماوعد .

فأنزل الله عز وجل(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة" [1] .

ب - التنبؤات المستقبلية :

وهىكثيرة جداً سنقتصر على أمثلة منها :

الأول : تنبؤه بانتصار الروم على الفرس بعد أن هُزم الروم من الفرس ، قال تعالى : (الم غلبت الروم فىأدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) الروم / ١ - ٣ ، فغلبت الروم

وانظر : على بن ربن الطبرى / الدين والدولة / ص ٣٦ .

(١) مسلم [كتاب الجهاد / باب الإمداد بالملائكة فى بدر] .

فارس فى بضع سنين ، والبضع مادون العشر وهو ماراهن عليه أبو بكر الصديق مشركى قريش من أجل محدد لانتصار الروم على فارس فوقع الانتصار عند رأس سبع سنين [١] .

الثانى : تنبؤه بموت الوليد بن المغيرة وأبى لهب كافرين ، قال تعالى فى سورة المدثر : (ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً .. إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر ، وما أدراك ماسقر ، لا تبقى ولا تذر)المدثر/١١ - ٢٨ وقال عن أبى لهب : (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب) المسد / ١ - ٣ . فكان كما أخبر ، فملت الوليد كافراً ومات أبو لهب كافراً .

الثالث : تنبؤه بالعودة إلى مكة مسقط رأسه بعد أن خرج منها مهاجراً إلى المدينة ، قال تعالى: (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) **القصص/** ٨٥ فعاد إلى مكة ظافراً عام الفتح .

الرابع : تنبؤه بدخول المسلمين المسجد الحرام آمنين ، قال تعالى: (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) الفتح / ٢٧ يقول القرطبى معلقا على هذه الآية : (فهذه الآية من أوضح معجزاته ﷺ وذلك أن الله تعالى وعده بأن يدخله المسجد الحرام هو وقومه فى حالة أمن ويفتح عليهم مكة على أحسن حال ، فمازالوا ينتظرون

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى / دلائل النبوة (١ / ٣٥١ - ٣٥٢) .

ذلك حتى بلغ وقته ، وصدق وعده ، فدخلوا كما وعدهم ، وفتحوه على ما أخبرهم) [١]

الخامس : تنبؤه بتمكين المسلمين واستخلافهم فى الأرض ، يقول تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناء يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) النور / ٥٥.

وقد فعل الله ذلك بمحمد وأمته ملّكهم الأرض واستخلفهم فيها وأذل لهم ملوكها بعد أن كانوا أهل عز وكبر وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم .[٢]

ثانيا : معجزات فى كتب الحديث

تشتمل معجزات النبى ﷺ فى كتب الحديث على جنسين :-

أولهما : المعجزات الفعلية

وهى المعجزات المتعلقة بالتأثير في الكائنات إما من جهة النبي ﷺ ، أو من فعل الله الذى لا يكون فيه تأثير للنبى بحال كإهلاك الأعداء وتذليل النفوس للأنبياء ومحبتها لهم .وهذا القسم يضم أنواعاً كثيرة كالتأثير فى الأحياء ، والتأثير فى الجماد ، وتكثير الطعام ونبع الماء من بين أصابع النبى ﷺ ، ومن الأمثلة على ذلك :-

---

(١) القرطبى / الإعلام / ص ٣٣٧ .

(٢) القرطبى / ٣٣٨ .

١ - **رمى الحصى فى وجوه الكفار** ، روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قد أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار ثم قال : انهزموا ورب محمد . قال العباس بن عبد المطلب : فذهبت انظر فإذا القتال على هيئة فيما أرى . قال : فوالله ما هو إلا أن رماهم رسول الله ﷺ بحصياته فما زلت أرى أحدَّهم كليلاً وأمرهم مدبراً(١).

٢ - **نبع الماء من بين أصابعه** ﷺ ، روى الشيخان فى صحيحيهما " أن النبى - ﷺ - كان بالزوراء دعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فى الماء ، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه ، حتى توضأ القوم فقلنا لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة أوزهاء الثلاثمائة " البخارى (كتاب المناقب / باب علامات النبوة فى الإسلام) مسلم (كتاب الفضائل / باب فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم)

ويرى أبوعبيدة الخزرجى فى تلك المعجزة أن انفجار الماء من اللحم أعجب من انفجاره من الحجر ، وأيضا فإن موسى قد فجرّ الماء من حجر بعينه ، وحينما أراد بنو إسرائيل أن يفجر لهم الماء من حجر غيره أبى عليهم موسى ذلك ، أما النبى ﷺ فلم يحدد قدحاً بعينه (٢) .

٣ - **تكثير الطعام** ، روى الشيخان من طريق عباس بن محمد الدورى أن جابر بن عبدالله قد أعد طعاماً للنبى ﷺ فى غزوة الخندق ، عبارة

---

(١) مسلم [كتاب الجهاد والسير / باب غزوة حنين] .

(٢) أبو عبيدة الخزرجى / مقامع هامات الصلبان / بتحقيق الدكتور محمد شامة / ص ٢٠ - ٢٠١ .

عن صاع من شعير وعناق ، فباركه النبى ﷺ ، فأكل الجند وهم ألف حتى شبعوا ، ولا زالت البرمة تغط باللحم كما هى ولازال العجين يخبز كما هو[١] .

٤ - **شفاء المرضى** ، وذلك كما روى الشيخان فى غزوة خيبر عن النبى ﷺ " أنه أرسل إلى علىّ وهو أرمد العين ، فقال لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، فلما جاء بصق فى عينه فبرئ كأن لم يكن به وجع قط ، وأعطاه الراية ، فقال علىّ : يارسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيهم ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من حمر النعم " البخارى (كتاب المغازى / باب غزوة تبوك] مسلم [كتاب الفضائل / باب فضائل علىّ بن أبى طالب).

٥ -**حنين الجذع** ، روى الشيخان عن جابر بن عبدالله قال : " كان المسجد مسقوفاً على جذوع النخل ، فكان النبى ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع المنبر وقام عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكن " البخارى (كتاب الجمعة / باب الخطبة على المنبر) .

ومثل ذلك ماروى من تسبيح الطعام الذى يأكله النبى ﷺ [٢] .

(١) البخارى [كتاب المغازى / باب غزوة الخندق]
مسلم [كتاب الأشربة / باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك] .
(٢) البخارى [كتاب المناقب / باب علامات النبوة فى الإسلام] .

والثانى : المعجزات القولية .

وهى صنفان إما إخبار بغيوب أو دعاء تلتمس به الحاجات من الله تعالى ويستجاب هذا الدعاء ، ومن أمثلة ذلك :

الصنف الأول : الإخبار بالغيوب ، وهى كثيرة جداً ، منها :

١ - مسائل عبدالله بن سلام ، روى البخارى فى صحيحه : " جاء عبدالله بن سلام إلى رسول الله ﷺ مقدمه إلى المدينة فقال إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ! ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أمه وإلى أبيه ؟

قال : أخبرنا جبريل آنفا . قال ابن سلام : ذلك عدو اليهود من الملائكة. أما أول أشراط الساعة فنار تخرجهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : يارسول الله إن اليهود قوم بُهُت فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى ، فجاءت اليهود فقال النبى ﷺ : أىُّ رجل عبدالله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام !! قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك ، فخرج إليهم عبدالله بن سلام فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه ، قال : هذا ماكنت أخاف يارسول الله"[1].

---

(١) البخارى [كتاب المناقب / باب مسائل عبدالله بن سلام] .

بن سلام فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه ، قال : هذا ماكنت أخاف يارسول الله"(١).

ومن ذلك الباب أيضا مارواه الإمام مسلم فى صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : " كنت قائماً عند رسول الله ﷺ ، فجاء حبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليكم يامحمد ، فدفعتُه دفعة كاد يصرع منها . فقال : لم تدفعنى ؟ قلت : لا تقول يارسول الله . قال : إنما سميته باسمه الذى سماه به أهله . فقال رسول الله ﷺ : إنّ اسمى الذى سمانى به أهلى محمد ، فقال اليهودى جئت أسألك ، فقال رسول الله ﷺ : ينفعك شئ إن حدثتك . قال : أسمع بإذنى . فنكت بعود معه فقال له: سل. فقال اليهودى : أين الناس يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : فى الظلمة دون الجسر . قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : فقراء المهاجرين ، قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : زيادة كبد نون ، قال : فما غذاؤهم على أثره ؟ قال ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها. قال : ما شرابهم عليه ؟ قال : من عين فيها تسمىّ سلسبيلا . قال : صدقت .

قال : وجئت أسألك عن شئ لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان. قال ينفعك إن حدثتك ؟ قال : أسمع بأذنىّ . قال : جئت أسألك عن الولد . قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا منىّ الرجل منىّ المرأة ذكّرا بإذن الله وإن علا منىّ المرأة

(١) البخارى [كتاب المناقب / باب مسائل عبدالله بن سلام] .

منيّ الرجل أنثا بإذن الله. فقال اليهودى : صدقت وإنك نبيّ ثم انصرف . فقال النبى ﷺ : إنه سألنى هذا الذى سألنى عنه وما أعلم شيئاً منه حتى أتانى الله به "مسلم (**كتاب الحيض / باب صفة منى الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما**) .

٢ - **الإخبار باستشهاد عمر وعثمان** ، روى البخارى أن النبى ﷺ قد صعد أُحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم . فضربه النبى ﷺ برجله وقال : اثبت عليك نبى وصديق وشهيدان **البخارى (كتاب المناقب / باب فضل أبى بكر)** .وكذلك الإخبار بأن فاطمة رضى الله عنها هى أول بيته لحاقاً به فى الموت **البخارى (كتاب الاستئذان / باب من ناجى بين يدى الناس ومن لم يخبر بسرّ صاحبه)** . فكان أن توفيت بعده بستة أشهر [(١)] .

٣ - **إخباره بسيادة الحسن بن على بن أبى طالب وإصلاحه بين فئتين عظيمتين من المسلمين** ، روى البخارى عن أبى الحسن قال : " سمعت أبا بكرة يقول : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن على رضى الله عنهما إلىجنبه وهو يلتفت إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول : ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " [(٢)] ، فكان كما أخبر .

---

(١) البخارى [كتاب المغازى / باب غزوة خيبر]
مسلم [كتاب الجهاد / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : لا نورث ماتركنا فهو صدقة]
(٢) البخارى [كتاب الصلح بين الناس / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم " إن ابنى هذا سيد

٤ - الإخبار بمن يكون بعده فى قبيلة ثقيف من كذاب ومُبير [١] ، روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ، أنها قالت للحجاج بن يوسف أما أن رسول الله ﷺ حدثنا أن فى ثقيف كذّابا ومبيراً ، فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه[٢] ، والمعروف أن قبيلة ثقيف كان قد خرج فيها المختار بن أبى عبيد . ولا شك أن وقوع هذه التنبؤات كما أخبر بها النبى ﷺ ليدل دلالة قطعية على النبوة إذ لا يعقل كما يقول الآمدى أن يخبر شخص بحدوث هذه الوقائع ثم تقع تفصيلا على الوجه الذى أخبر به إلا أن يكون ذلك بوحى سماوى [٣] .

الصنف الثانى : دعاؤه المستجاب

وذلك فى أمور عامة لخير المسلمين ، منها :

١ - استسقائه فى حالات الجدب ، روى الشيخان فى صحيحيهما عن أنس : " أن رجلا دخل المسجد فى يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل الرسول ﷺ قائلاً : يارسول الله ! هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا. قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ، ثم قال : الله أغثنا ! اللهم أغثنا ! اللهم أغثنا . قال أنس : لا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا من قزعة ، وإن السماء لمثل الزجاجة . فوالذى نفسى بيده ماوضع يديه حتى كان السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته .

---

(١) المبير هو المهلك .

(٢) مسلم [كتاب فضائل الصحابة / ذكر كذاب ثقيف ومبيرها] .

(٣) الآمدى / نهاية العقول فى دراية الأصول / ص ٣٧٠ .

ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة التالية ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله قائما فقال : يارسول الله ! هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله أن يمسكها عنا . فرفع رسول الله ﷺ يده ، ثم قال : اللهمّ حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشعر . قال : فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفجرت حتى رأيت المدينة فى مثل الجوبة ، وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجئ أحد من ناحية إلا أخبر بجود " **البخارى (كتاب الجمعة / باب من تمطر فى المطر حتى يتحادر على لحيته).**

أو فى دعوات مخصوصة بمن سمىَّ أو دعا له النبى ﷺ بخير وذلك مثل :

١ - دعاؤه لعبدالله بن عباس بالفقه فى الدين والعلم بالتأويل ، روى البخارى عن ابن عباس قال : " أتى النبى ﷺ الخلاء ، فوضعت له وضوءاً فلما خرج قال : من صنع هذا ؟ فأُخبر. فقال : اللهمَّ فقِّهه فى الدين " (١)، فأجيب دعاؤه فيه فكان يقال لابن عباس " ترجمان القرآن " ، " البحر " .

٢ - دعاؤه لأم أبى‌هريرة بالهداية وإجابة الله تعالى له فيها ، روى مسلم فى‌صحيحه عن أبى هريرة قال : " ماعلى وجه الأرض مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبنى ، قال قلت وما علمك بذلك يا أبا هريرة ؟ قال : إنى كنت أدعو أمىّ إلى الإسلام فتأبى ، وإنى دعوتها ذات يوم فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره ، فجئت إلى رسول الله ﷺ ، فقلت يارسول الله

(١) البخارى [كتاب الوضوء / باب وضع الماء عند الخلاء] .

إنى كنت أدعو أمىّ إلى الإسلام فتأبى علىّ ، وأنا دعوتها فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله يارسول الله أن يهدى أم أبى هريرة إلىالإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : اللهمّ اهد أم أبى هريرة ، فرجعت إلى أمىّ أبشرها بدعوة رسول الله ﷺ ، فلما كنت على الباب إذا الباب مغلق فدفعت الباب فسمعت حسى فلبست ثيابها ، وجعلت على رأسها خماراً ، وقالت : ارفق يا أبا هريرة ، ففتحت لى ، فلما دخلت قالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال : فرجعت إلى رسول الله - ﷺ - وأنا أبكى من الفرح ، كما كنت أبكى من الحزن ، وجعلت أقول: أبشر يارسول الله قد استجاب الله دعوتك وهدى الله أم أبى هريرة إلى الإسلام فقلت : ادع الله أن يحَبّبنى وأمىّ إلى عباده المؤمنين ، ويحّببهم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : اللهم حّبب عُبَيْدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحّببهم إليهما ، فما على الأرض مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبُّنى وأحبه مسلم (**كتاب فضائل الصحابة / باب من فضائل أبى هريرة**) " .

٣ - دعاؤه لأنس بن مالك بكثرة المال والود وإجابة الله تعالى له فيه .

روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال : " جاءت أم سُليم وهى أم أنس إلى رسول الله ﷺ ، وقد أزّرتنى بخمارها ، وردّتنى ببعضه ، فقالت : يارسول الله هذا أنيس أتيتك به يخدمك ، فادع الله له . قال : اللهم أكثر ماله وولده ، قال أنس: فوالله إن مالى لكثير ، وإن ولدى وولد ولدى يتعادون على نحو المائة مسلم (**كتاب فضائل الصحابة / باب من فضائل أنس بن مالك**) " .

المبحث الثالث

البشارات

النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل

(الأعراف / ١٥٧)

البشارات هى إخبار الأنبياء والرسل المتقدمين فى كتبهم عن النبى محمد ﷺ تبشيراً ببعثته ، وإنذاراً بعاقبة مخالفته .

وعلى الرغم من أن هذه الأخبار والتنبؤات تعدُّ عديمة الفائدة فى مجال الاستدلال على نبوة محمد ﷺ مع غير اليهود والنصارى ممن لا يؤمن بإلهامية الأسفار الواردة فيها هذه الأخبار .فإن موضوع البشارات ينطوى على قدر من الأهمية ليس بالهين وذلك للأسباب التالية:-

١ - الحاجة إليه فى الرد على دعوى أهل الكتاب بأن الكتاب المقدس لم يبشِّر بمحمد ﷺ (١) .

٢ - أن النبى ﷺ قد استدل بهذه الأخبار التى نصّ القرآن على ورودها فى الكتاب المقدس ، كما فى قوله تعالى : (وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول

---

(1) Adel Theodare Khoury, Dér theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam, S : 36 .

يأتى من بعدى اسمه أحمد الصف / ٦ ، وقوله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) الأعراف/ ١٥٧ .

كما نصّ القرآن على معرفة أهل الكتاب النبى محمداً ﷺ معرفة دقيقة بما توافر عندهم من علاماته والإشارات إليه ، يقول تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) البقرة / ١٤٦ ، الأنعام / ٢٠.

٣ – أن بشارة الكتب السالفة بالنبى الأمىّ برهان من براهينه لتعلق ذلك بعلم الغيب الذى أخبر الله تعالى بأنه لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول[1].

٤ – أنه يدخل فى باب الإلزام لليهود والنصارى ؛ لكون الأنبياء الخبيرين بعلامات نبوة محمد ﷺ متقدمين عليه فى الزمان ، وكون هذه البشائر كانت معروفة قبل مجيئة ﷺ [2] .

وإدراكاً لأهمية هذا الموضوع تضافرت جهود علماء المسلمين ومسلمة أهل الكتاب فى البحث عن مواضع هذه البشارات واستخلاصها من نصوص الكتاب المقدس وبيان مدى انطباقها على النبى ﷺ ، فتتابعت المؤلفات والرسائل فى هذا المجال ، حتى بلغت حدّا يجعل منها موضوعاً ثرياً للبحث والدراسة ، فإلى جانب المؤلفات المستقلة فى هذا الموضوع مثل كتاب على بن ربن الطبرى " الدين والدولة فى إثبات نبوة النبى محمد

(١) العامرى / الإعلام بمناقب الإسلام / ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٢) القرطبى / الإعلام ٢٦٣ .

ﷺ"(١)وكتاب أبى الحسن أحمد بن الحسين الزيدى " إثبات النبوة " (٢)وكتاب سعيد بن حسن الإسكندرى " مسالك النظر فى نبوة سيد البشر " (٣) ، وفى العصر الحديث كتاب عبدالأحد داود " محمد فى الكتاب المقدس " (٤) ، وكتاب إبراهيم خليل أحمد" محمد رسول الله ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن " (٥)

فإن كتاباً من كتب دلائل النبوة لايكاد يخلو بحال من البشائر والتعليق عليها والبحث فى مدى انطباقها على محمد ﷺ (٦) .

كذلك أورد المصنفون فى مجال مقارنة الأديان وكتب الملل والنحل نماذج لأشهر هذه البشارات وعكفوا عليها بالفحص والدراسة (٧) .

---

(١) حققه عادل نويهض ونشرته دار الآفاق ببيروت ، وهناك نشرة أخرى له وهى التى نشرتها المكتبة العتيقة بتونس وهى التى ننقل عنها فى بحثنا ..

(٢) حققه خليل أحمد فرج ، ونشرته مكتبة القاهرة عام ١٩٧٩م .

(٣) حققه ونشره مع ترجمة لدراسة المستشرق S. A. Weston الدكتور محمد عبدالله الشرقاوى ، ونشرته مكتبة الزهراء ، القاهرة .

(٤) نشرته رئاسة المحاكم الشرعية بقطر .

(٥) نشر بمكتبة الوعى العربى – القاهرة .

(٦) راجع مثلا : – القاضى عبدالجبار / تثبيت دلائل النبوة .

– البيهقى / دلائل النبوة .

– ابن قتيبة / دلائل النبوة .

– أبو نعيم الأصبهانى / دلائل النبوة .

– الماوردى / أعلام النبوة .

(٧) العامرى / الإعلام بمناقب الإسلام / ص ٢٠١ – ٢٠٨

ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنحل (١ / ٨٥ ، ٩٠ – ٩١)

أما كتب الردود على اليهود والنصارى فإن مبحث البشائر يُعدُّ أحد الموضوعات الأساسية فى تلك المؤلفات باعتباره من موارد النزاع بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى ، وأحد البراهين المستدل بها فى إثبات نبوة محمد ﷺ ، فى مواجهة أهل الكتاب (١) .

وقد وجّه مطعن إلى البشارات بمحمد ﷺ ، مؤداه أن المسلمين قد عمدوا إلى التعسف والتأويل فى قراءة نصوص الكتاب المقدس وتطبيقها على النبى محمد ﷺ ، على أنها رموز وإيحاءات أو تصريحات به ﷺ ، أو أن المسلمين قد استدلوا بنصوص غير موجودة فى متن الكتاب المقدس ، أو أنهم يتصرفون فى ترجمتها على غير مايراد بها (٢) .

= الشهرستانى / الملل والنحل (١ / ١٨) .

(١) راجع مثلا :
- السموأل بن يحيى المغربى / إفحام اليهود / ص ١١١ - ١٢٠ .
- أبا عبيدة الخزرجى / مقامع هامات الصلبان / ص ٢١٤ - ٢٣٢ .
- القرطبى / الإعلام / ص ٢٦٣ - ٢٨٠ .
- عبدالله الترجمان / تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب / ص ١٣٤ - ١٤٨ .
- صالح بن الحسين الجعفرى / الرد على النصارى / ص ١١٤ - ١٢٣ .
- نجم الدين البغدادى الطوفى / الانتصارات الإسلامية / ص ١٢٠ - ١٢٦ .
- محمد بن أبى طالب الأنصارى / الرد على النصارى (مخطوط) / ورقة ١١٢ - ١١٦
- ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣ / ٢٧٥ - ٤ / ٢٢) .
- ابن القيم / هداية الحيارى / ص ٩٠ - ٢٠٠ .
- نعمان بن محمد الآلوسى / الجواب الفسيح (١ / ٢٦١ - ٣٣٢) .
- رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١٠٧٨ - ١٢١٣)

(٢) عبدالمجيد الشرفى / الفكر الإسلامى فى الرد على النصارى / ص ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ - ٥٠٩

ومثل هذا المطعن لا يعدو كونه اتهاماً عاماً لا يقوم على تتبع دقيق للبشارات التى استخرجها علماء الإسلام واستدلوا بها ، ثم العكوف عليها واحدة واحدة بالفحص والدراسة وطرح المبررات التى يمكن على أساسها الطعن فى تلك البشارات ومدى انطباقها على محمد ﷺ ، ومن ثمَّ اتهام المسلمين بالتعسف فى التأويل أو مجانبة الصواب فى الترجمة (١) .

فهناك أمور يجب أن تؤخذ فى الحسبان عند النظر فى ذلك الأمر ، منها:

أولا : ليس كل ما أخبرت به الأنبياء السابقون قد وصلنا ، وذلك معلوم بالاضطرار من خلال معرفتنا بكيفية جمع الكتاب المقدس وطريقة نقله وترجمته(٢) ، ويتعلق بذلك أيضا أن نسخ وتراجم الكتاب المقدس ليست واحدة في زمننا هذا ، ولم تكن واحدة من قبل ذلك حينما توفر علماء الإسلام على استخراج البشارات ، ومن ثمّ فليس بمستغرب أن يقف على بن ربن الطبرى على نصوص كتابية فيها التصريح باسم النبى محمد ﷺ ؛ كالبشارة التى استخرجها من مزامير داود : " إن ربنا عظيم محمود جدا ، وفى قرية إلهنا وفى جبله قدوس ومحمد " (٣) وكالبشارة التى استخرجها من

- مقدمة المستشرقون S. A. Wiston لكتاب مسالك النظر / ص ١٥ بمقدمة الدكتور / محمد الشرقاوى لكتاب مسالك النظر .

Adel Theodore Khoury, Der theologische Streit, S : 36 . -

(١) Adel Theodore Khoury, Der theologische Streit, S : 37 .

(٢) راجع كتابنا : منهج أهل السنة والجماعة

ورسالتنا للدكتوراه " النبوة بين اليهودية والمسيحية والإسلام "

(٣)على بن ربن الطبرى / الدين والدولة ص ٨١ . وانظر ص ١٠٦ .

سفر أشعيا : "اسمعى أيتها الجزائر وتفهمى يا أيتها الأمم . إن الرب أهاب بى من بعيد وذكر اسمى وأنا فى الرحم وجعل لسانى كالسيف الصارم وأنا فى البطن وحاطنى بظل يمينه و جعلنى فى كنانته كالسهم المختار وخزننى لسرّه وقال لى إنك عبدى ، فصرفى وعدلى قدام الرب حقا وأعمالى بين يدى إلهى وصرت محمداً عند الرب وبإلهى حولى وقوتى ". (١)

كذلك ليس بمستغرب أن يقف الفاضل حيدر على القرشى فى كتابه المسمى بـ "خلاصة سيف المسلمين " باللغة الأردية فى الصفحة ٦٣ ، ٦٤ على اسم محمد ﷺ فى بشارة من سفر أشعيا الذى ترجمه القسيس أوسكان الأرمنى إلى اللغة الأرمنية وطبع عام ألف وسبعمائة وثلاثة وثلاثين فى مطبعة أنتونى بورتولى ، وتوجد هذه البشارة فى الإصحاح الثانى والأربعين ، نصها : " سبحوا لله تسبيحا جديداً ، وأثر سلطنته على ظهره واسمه أحمد " (٢) .

ثانيا : اختلاف نسخ وتراجم الكتاب المقدس ذلك الاختلاف غير المنضبط قد نشأ عنه خلاف بين علماء الإسلام فيما إذا كان ورود ذكر النبى ﷺ فى الكتاب المقدس بالاسم أم الصفة ، ذلك الخلاف الذى ربما كان أحد الأسس التى بنى عليها الطاعنون ماوجهوه من سهام :

إذ ذهب فريق من علماء الإسلام إلى أن ذكر النبى ﷺ فى الكتاب المقدس لا يجوز أن تكون ألفاظ البشارة به واقعة على التصريح والإفصاح ، وأنها متى وقعت مرموزة فهى لا محالة معرضة

---

(١) على بن ربن الطبرى / الدين والدولة / ص ٩٦ .
(٢) رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١٢٠٨ - ١٢٠٩) .

للتأويلات ، وكل قول كان عرضة للتأويلات فإن مسلك التلبيس فيه وإيراد اللبس عليه لن يكون شاقا على الخب الفطن [1] .

بينما ذهب الفريق الثانى إلى أن البشارة بمحمد ﷺ فى الكتاب المقدس قد وقعت بالنص على صفته وبلده وأمته وشريعته وبالتصريح باسمه [2] .

ثالثا : إذا كان الطابع العام للبشارات أن تكون فى الأكثر بالرمز لا بالتصريح فإن حل الرموز والإشارات يقوم على التأويل والتفسير لا محالة ، وهذا مايكون محلا للخلاف فى العادة خصوصاً إذا اختلفت المشارب والأهداف والملل ، ويكون الإلزام بوجه من وجوه التفسير فى تلك الحالة صعب المنال ، ولذلك أورد بعض علماء الإسلام كالقاضى عبدالجبار مسألة الاستدلال بالبشارات على النبوة بصيغة التمريض لكونها موضع خلاف فى التفسير والاستدلال وعرضة لعدم ارتفاع موانع الإلزام ، يقول القاضى : " فأما اشتمال التوراة والإنجيل على البشارة بمحمد ﷺ فمما عرفناه بالقرآن ، وقد ذكر فى ذلك ألفاظ كثيرة دالة على البشارة بنبى يعظم حاله ولزوم شرعه ، وذكر أن فى السفر الأول من التوراة ....

(١) العامرى / الإعلام / ص ٢٠٢ .
- ابن القيم / هداية الحيارى / ص ١٩ - ٩٣ .
(٢) راجع مثلا : ابن حزم / الفصل (١ / ٨٥) .
- صالح بن الحسين الجعفرى / الرد على النصارى / ص ١١٧ - ١٢٠ .
- محمد بن أبى طالب الأنصارى / الرد على النصارى / ورقة ١١٤ .
- القرطبى / الإعلام / ص ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
- الخزرجى / مقامع هامات الصلبان / ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ .
- ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣ / ٢٨٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ - ٣٣١) .

وقد ذكر فى ذلك من الألفاظ الدالة على ماذكرناه مـــايكثر ، وإنمـــا اقتصرنا على ماذكرناه ؛ لأنه لافائدة لنا فى ذكره ؛ لأنا لا نستدل بما حل هذا المحل على نبوة محمد ﷺ ؛ ولأن القوم لو نازعونا فى الذى ندعيه من هذه الألفاظ ومعانيها لم نرجع إلى الثقة فيما نورده ؛ لأن هذا التفسير لـــم تثبـــت عندنا صحته ، ولا المفسَّر ثبت عندنا نقله ، وإنما نرجع فيه إلـــى مـــايجرى مجرى خبر الواحد ، أو إلى اعتراف القوم بذلك ، وأيهما كان فإنه يضعـــف عندنا التعلق به على طريقة الاحتجاج ، وإن قوى التعلق به كـــان المقصـــد مدافعة القوم عما يحاولون الاحتجاج به علينا " (١) . ولم يختلف موقفه فـــى تثبيت دلائل النبوة عن ذلك كثيراً إذ يعلق على موضوع البشارات بما نصه : " وللعلماء فيه كتب مفردة ... فإنـــهم ذكـــروا تلـــك المواضـــع مـــن تلـــك الكتب وما فيها من البشارات والإشارات ، فإن أردتها وجدتها وإن كان فمعك ما يغنيك عنها " (٢).

وقد سلك ذلك المسلك غيره من المتكلمين كالإيجى – مثلا – الـــذى يعدُّ البشارات فضلة فى مجال الاســـتدلال ، فيقـــول : " المســـلك الثـــالث : إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام فى التوراة والإنجيـــل . فإن قيل : إن زعمتم مجئ صفته مفصلا أنه يجئ فىالســـنة الفلانيـــة فـــى البلدة الفلانية وصفته كيت وكيت ، فاعلموا أنه نبى ، فبـــاطل ؛ لأنـــا نجـــد التوراة والإنجيل خاليين عن ذلك ، وأما ذكره مجملا فإن سلم فلا يدل علـــى النبوة بل على ظهور إنسان كامل أو لعله شخص آخر لم يظـــهر بعـــد قلنـــا

(١) القاضى عبدالجبار / المغنى (١٦ / ١٣٧) .

(٢) القاضى عبدالجبار / تثبيت دلائل النبوة / ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

المعتمد ظهور المعجزة على يده وهـذه الوجـوه الأُخـر للتكملـة وزيـادة التقدير (١).

رابعاً : أن اسم محمد أو أحمد الذى لم يعط من قبل لأحد وحجـز بصـورة معجزة لأشهر رسل الله ، لابد أن ذلك كان لحكمة ما ، هى أن الكتب السابقة قد بشرت بهذا الاسم ، فلم يتسم به أحد من قبل حتى لا يحدث لبس واختلاط

وربما يكون خسان بن ثابت أول من نبه إلى أن اسم محمد لم يأت مصادفـة بل بتدبير الله تبارك وتعالى لأن هذا الاسم سيقترن بلفظ الجلالة مذكوراً كـل يوم وليلة ، وذلك حينما أنشد :

وشـقَّ لـه من اسمه ليجلـَّه فـذو العرش محمود وهذا محمد

وضم الإله اسم النبى إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

خامساً : أن اليهود والنصارى كانوا ينتظرون نبياً بشرت به كتبـهم ، وقـد ادعى محمد النبوة وأتى بالبراهين على صدقه ، فليس هناك مايمنع أن يكـون هو المبشَّر به تصريحاً أو تلميحاً .

وننتهى من هذه المقدمات الخمس إلى أن محمداً ﷺ قد بشرت بـه الأنبياء السابقون فى مواضع عدة مـن كتبـهم ، ويمكـن تصنيـف هـذه المواضع – التى سنقتصر على مثال بارز لكل منها – إلى مـايلى حسـبما أفدناه من تقسيم الماوردى (٢) .

(١) الإيجى / المواقف / ص ٣٥٧ .
(٢) الماوردى / أعلام النبوة / ص ١٠٩ – ١١٠ .

أ - البشارة باسم النبى ﷺ .

تمثل ذلك فى البشارة بالباراقليط الواردة فى أربعة مواضع من إنجيل يوحنا ، وهى :

١ - قول المسيح : " إذا كنتم تحبونى ، حفظتم وصاياى وأنا سأسأل الآب فيهب لكم باراقليطا آخر يكون معكم للأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يتلقاه لأنه لا يراه ولا يعرفه ، أما أنتم فتعلمون أنه يقيم عندكم ويكون فيكم "(١) .

٢ - قول المسيح : " ولكن الباراقليط الروح القدس الذى يرسله الآب باسمى هو يعلِّمكم جميع الأشياء ويذكِّركم جميع ماقلته لكم "(٢) .

٣ - قول المسيح : " ومتى جاء الباراقليط الذى أرسله إليكم من لدن الآب روح الحق المنبثق من الآب ، فهو يشهد لى ، وأنتم أيضا تشهدون لأنكم معى منذ البدء"(٣) .

٤ - قول المسيح : " إنه خير لكم أن أذهب ، فإن لم أذهب لا يأتكم الباراقليط أما إذا ذهبت فأرسله إليكم ، وهو متى جاء أخزى العالم على الخطيئة (٤) ، والبر والدينونة ..... فمتى جاء هو ، أى روح الحق أرشدكم إلى الحق كله ؛

(١) إنجيل يوحنا (١٤ / ١٥ - ١٧) .

(٢) إنجيل يوحنا (١٤ / ٢٦ - ٢٧) .

(٣)إنجيل يوحنا (١٥ / ٢٦ - ٢٧) .

(٤) ترجم البروتستانت هذه الآية على هذا النحو : " فإذا جاء ذاك يحج العالم على الخطية " بلفظ يحجُّ وليس يخزى ، وينقل رحمة الله الهندى عن ترجمة الكاثوليك المطبوعة فى روما عام ١٦٧١ ،الآية بلفظ : " ومتى جاء ذاك يبكِّت العالم على الخطية" إظهار الحق (٤ / ١١٩٥) وهذا اللفظ التبكيت مهم فى الاحتجاج على النصارى كما سيأتى بعد .

لأنه لن يتكلم من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث ، سيمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم به " [١] .

والباراقليط كلمة يونانيـــة Parakletos تعنـــى لغويـــا : الأمجـــد والأشهر والمستحق للمديح وهى اسم أو صفة لنبىٍّ يبشر به المسيح يأتى مــن بعده تطابق أوصافه نبى الإسلام ، إذ تعنى الكلمة مايعنيه اسم أحمد باللغــــة العربية أى المشهور والممجَّد [٢] .

وقد تُرجمت كلمة الباراقليط إلى المؤيِّــد وذلـــك حســب ترجمــة الكاثوليك الحديثة ذات الحواشى والتعليقات والمقدمات عظيمـــة النفـــع [٣] ، وإلى المعزّى وذلك حسب ترجمة البروتستانت التى طبعها وليم واطسن فــى لندن عام ١٨٥٧م[٤] .

ويعلق الآباء اليسوعيون الذين أصـــدروا ترجمـــة العـــهد الجديـــد الحديثة المطبوعة عام ١٩٨٩م فـــى هـــامش (١٦) ص ٣٣٧ علـــى نـــص يوحنا (١٤ / ١٦) بما نصه :

" فى الأصل اليونانى (الباراقليط) وهو لفظ مقتبس من لغة القانون ويـــدل على من يُستدعى لدى المتهم للدفاع عنه : فـــالمعنى الأول هـــو المحـــامى

(١)إنجيل يوحنا (١٦ / ٧ - ١٤) .

(٢) عبدالأحد داود / محمد فى الكتاب المقدس / ص ٢١٦ .

(٣) راجع ترجمة الكاثوليك باعتماد بولس باسيم النائب الرسولى للاتين ، والمطبوعـــة فـــى دار المشرق . بيروت ١٩٨٩م .

(٤) العهد الجديد - نسخة الكاثوليك (٢ / ٣٣٧) .

والمساعد والمدافع . وبناء على هذا المعنى ظهرت معانٍ أخرى كالمعزّى والشفيع " [١] .

ويدفع القس عبدالأحد داود الخبير باللغة اليونانية هذه الترجمة ويرميها بالتحريف الجليّ ، إذ لا يمكن أن تكون كلمة الباراقليط تعني المعزى أو المحامى أو الوسيط أو المؤيد أو الشخص الذى يُدعى للمساعدة ، لأن الفعل المستخدم لذلك هو (باراكالو Parakaloo) الذى يعني : ينادى ، يدعو ، يعزى ، يرجو ، يناشد . والشخص المناط به ذلك هو (باراكالون Paracalon) أى الشخص الذى يعزّينا وليس (براكليتوس Praclytos) .

كذلك فإن Sanegorus هى الكلمة اليونانية المرادفة لكلمة المحامى ، أما كلمةالوسيط أو الشفيع فيعبر عنها بلفظ Meditea [٢] .

وكما لا يُخرج تحريف ترجمة الباراقليط عن انطباقها على محمد ﷺ كذلك لا يخرجها إضافة كلمة روح القدس أو روح الحق إليها .

فيبين رحمة الله الهندى أن هذه الإضافة التى تهدف إلى التضليل لا تصرف البشارة إلى كونها إخباراً بالروح القدس ، بل هناك ثلاثة عشر وجهًا تدل على أن الباراقليط هو نبى قادم يبشّر به عيسى ، وهى [٣] :

١ - أن عيسى قد قال : " إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى " ثم أخبر عن الباراقليط ، فهو عبارة عن النبى المبشّر به الذى يخشى المسيح

(١) راجع ترجمة البروتستانت ، نشرة وليم واطسن المطبوعة فى لندن عام ١٨٥٧م والتى نشرتها مكتبة السائح . بيروت ١٩٨٣م .

(٢) عبدالأحد داود / محمد فى الكتاب المقدس / ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١١٩١ - ١١٩٨) .

من عدم إيمان أتباعه به ، ومن غير المعقول أن يكون المقصـود هـو روح القدس الذى يعرفه التلاميذ لأنهم كانوا مستفيضين منه مـن قبـل ، كمـا أن الروح القدس يتنزل على القلب فلا مجال لإنكاره .

٢ - أن هذا الروح متحد بالآب مطلقا وبالابن نظـراً لاتحـاد اللاهـوت ، فلا يمكن معه القول بأنه "باراقليط آخر " ، وذلك بخلاف النبى الذى يصـح ذلك بحقه .

٣ - أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خـواص هـذا الـروح المتحد بالله.

٤ - أن عيسى قد أخبر بأنه " هو يذكركم كل ماقلته لكم " ولـم يثبـت مـن رسائل العهد الجديد أن التلاميذ كانوا قد نسوا ماقاله عيسى عليـه السـلام ، وأن الروح النازل يوم الخمسين قد ذكرهم إياه [1] .

٥ - أن المسيح يخبر التلاميذ عن أمر لم يكن قد حدث بعد ، فـهو يقـول : " لقد أنبأتكم منذ الآن بالأمر قبل حدوثه حتىإذا حـدث تؤمنـون " [2] وهـم كانو قد عاينوا الروح من قبل .

٦ - أن عيسى أخبر عن الباراقليط أنه " هو يشهد لأجلـى " وهـذا الـروح ماشهد لأجله بين أيدى أحد ؛ لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ماكانوا محتـاجين إلى الشهادة ؛ لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضا ، فلا فائدة للشهادة بين أيديهم ، والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة لم يشـهد

---

(١) يعلق الآباء اليسوعيون على هذه الجملة بما نصه : " إن التلاميذ الذين سبق لهم أن شاركوا يسوع فى حياته فىالأرض يحفظون ذكرى ماعمله وقاله " ، انظر هامش ٢٧ ص ٣٣٨ بحاشية نسخة الكاثوليك .

(٢)إنجيل يوحنا (١٤ / ٢٩) .

الروح بينهم ، بخلاف محمد ﷺ فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه ، وبرّأه عن ادّعاء الألوهية الذى هو أشد أنواع الكفر والضلال ، وبرّأ أمه عن تهمة الزنا التى رماها بها اليهود .

٧ – قول عيسى : " وأنتم أيضا تشهدون " وهذا يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة التلاميذ غير شهادة البارقليط ، وذلك لا يصح إذا تحدثنا عن الروح النازل يوم الخمسين والذى لم يشهد شهادة مستقلة عن شهادة التلاميذ ، بل هو الذى بلبل ألسنتهم .

٨ – تعليق عيسى مجئ البارقليط بذهاب المسيح نفسه ، ومعلوم أن الروح قد نزل عليهم فى حضوره لما أرسلهم إلى مدن إسرائيل فنزوله لم يكن مشروطاً بذهاب عيسى ، أما النبى محمد ﷺ فكان كذلك لأن مجيئه كان موقوفاً بذهاب المسيح .

٩ – تأكيد عيسى على أن أحد أعمال البارقليط أنه :

" يوبّخ العالم على الخطيئة " ولم يوجد أحد وبّخ العالم على الخطيئة كمحمد ﷺ ، فإنه أنذر جميع الناس ووبخهم على الخطايا ، وخصوصا المشركين من العرب والهند والترك والمجوس وأهل الكتاب اليهود والنصارى ، بل وتهددهم وتوعدهم .

١٠– تعليل عيسى التوبيخ بسبب عدم الإيمان به : " أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى"[1]. ومعلوم أن التلاميذ كانوا يؤمنون بعيسى ، فلم

---

(١)إنجيل يوحنا (١٦ / ٨) .

يكونوا محتاجين للتوبيخ ، كما أن الروح لم يظهر لأحد ويوبخه على الخطيئة فدل ذلك على أن المراد به نبى يظهر للناس ويوبخهم .

١١- إخبار عيسى بأنه : " لا يزال عندى أشياء كثيرة أقولها لكم ولكنكم لا تطيقون الآن حملها فمتى جاء هو أى روح الحق أرشدكم إلى الحق كله " ومعروف أن الروح لم تنزل عليهم بتكاليف أو شرائع لا يطيقون حملها ، بل قاموا من بعده باسقاط شريعة السبت وتحريم الخنزير ومعظم أحكام التوراة ، فعلم أن المراد بالباراقليط نبى تزاد فى شريعته أحكام فوق أحكام شريعة التوراة ويثقل حملها على المكلفين ضعفاء الإيمان .

١٢ - أن الباراقليط لا يتكلم من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ولم يكن هذا حال الروح القدس الذى هو متحد بالله ، بل كان محمداً ﷺ ، الذى قال الله تعالى فيه:(ماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) النجم / ٣ - ٤. وقال : (إن أتبع إلا مايوحى إلى) الأنعام/ ٥٠، يونس/ ١٥ ، الأحقاف / ٩

١٣ - قول عيسى : " لأنه يأخذ مما هولى " وهذا لايعقل فى حق الروح القدس الذى هو إله قديم كامل ، بل وجب أن يكون الموعود به نبياً من جنس البشرٍ .

ويمكن أن يضاف إلى هذه الوجوه أن بعض النصارى قد ادعوا النبوة وزعموا أنهم " الباراقليط " الموعود به فى إنجيل يوحنا واتبعهم خلق كثير، بل تأسست منهم حركة نبوية كبرى تعرف بالمونتا نستية المنسوبة إلى مونتانوس الذى دعا الناس إلى اتباعه بزعم أنه الباراقليط (١) .

(١) Karl Heussi, Kompendium der Kirchengeschichte, S : 56 - 57 .

ولم يعترض عليها وقتها بأن البارقليط هو الروح القدس ، وليس بشراً نبياً .

ب – البشارة بصفة النبى ﷺ .

جاء فى أشعيا : " هوذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى رضيت عنه نفسى ، قد جعلت روحى عليه فهو يبدى الحق للأمم ، لا يصيح ولا يرفع صوته ولا يسمع صوته فى الشوارع ، القصبة المرضوضة لن يكسرها والفتيلة المدخنه لن يطفئها ، يبدى الحق بأمانة لا ينى ولا ينثنى إلى أن يُحلَّ الحق فى الأرض ، فلشريعته تنتظر الجزر" (١) .

يعلق ابن القيم على هذه البشارة بقوله : " فمن وُجد بهذا الوصف غير محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ؟! فلو اجتمع أهل الأرض لم يقدروا أن يذكروا نبياً جمع هذه الأوصاف كلها – وهى باقية فى أمته إلى يوم القيامة – غيره ، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً " (٢) .

ثم يشرع فى تعليل انطباق هذه البشارة على محمد ﷺ ، فيستخرج الوجوه التالية (٣) :

١ – وصف المبشَّر به بـ " عبدى " مطابق لنداء الله – تعالى – محمداً بعبدى " : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)

(١) سفر أشعيا (٤٢ / ١ – ٤) .
(٢) ابن القيم / هداية الحيارى / ص ١٥٣ .
(٣) السابق / ص ١٥٣ – ١٦١ .

الفرقان / ١ ، وقال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) الإسراء / ١.

٢ - النص على أنه المختار ، يوافق قوله ﷺ : " إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم " [١] .

٣ - وصفه بأنه " لا يضحك " مطابق لوصف عائشة رضى الله عنها : " مارؤى رسول الله ﷺ ضاحكا حتى تبدو لهواته ؛ إنما كان يبتسم تبسماً".

٤ - قوله " قد جعلت روحى عليه " مطابق لقوله تعالى فى محمد : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) الشورى / ٥٢ .

٥ - قوله : " فيظهر فى الأمم عدلى " مطابق لقوله تعالى لمحمد : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم).

٦ - قوله:" يبدى الحق بأمانة " مطابق لقوله تعالى (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الشورى / ١٥.

جـ - البشارة بمخرج النبى ﷺ .

جاء فى سفر التثنية : " أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وسطع من جبل فاران"[٢]. وفاران هى مكة كما تقول

(١) البخارى [كتاب الفضائل / باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم] .
(٢) سفر التثنية (٣٣ / ٢) .

التوراة فى إسماعيل : " وكان الله مع الصبى حتى كبر فأقام بالبرية وكان راميا بالقوس، وأقام ببرية فاران، واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر " (١)

ويرى على بن ربن الطبرى أن لفظ الرب فى الآية يقع على النبى ﷺ والذى خرج من فاران ، وأن كلمة الرب مستعملة عند العرب وغيرهم بمعنى الله وبمعنى الرجل من الناس كقولك رب البيت ، ورب الدار (٢) .

ويذهب السموأل قريبا من ذلك إذ يقول : " وفى الإشارة إلى هذه الأماكن الثلاثة التى كانت مقام نبوة هؤلاء الأنبياء ما يقتضى للعقلاء أن يبحثوا عن تأويله المؤدّى إلى الأمر باتباع مقالتهم " (٣) .

أما جمهور مستخرجى البشارات والمعلقين عليها فيفسرون الآية بإنزال الله - تبارك وتعالى - التوراة فى سيناء ، والإنجيل فى ساعير والقرآن على محمد ﷺ فى برية فاران (٤) .

---

(١) سفر التكوين (٢١ / ٢٠ - ٢١) .

(٢) على بن ربن الطبرى / الدين والدولة / ص ٨١ .

(٣) السموأل / إفحام اليهود / ص ١١٨ .

(٤) راجع :

- العامرى / الإعلام / ص ٢٠٥
- الماوردى / أعلام النبوة / ص ١٠٢
- أبا عبيدة / مقامع هامات الصلبان / ص ٢١٧
- القرطبى / الإعلام / ص ٢٦٥
- نصرًا بن يحيى المتطبب / النصيحة الإيمانية / ص ١٤٤
- محمدًا بن أبى طالب الأنصارى الصوفى / الرد على النصارى / ورقة ٩٨

ويشبه ابن تيمية مجئ التوراة بطلوع الفجر ، ونزول الإنجيل بإشراق الشمس ونزول القرآن بظهور الشمس في السماء وعلوها في مشارق الأرض ومغاربها ؛ لذلك سمى الله محمداً ﷺ بالسراج المنير الذى يحتاجه الخلق أكثر من حاجتهم للسراج الوهاج .

كما يربط بين هذه البشارة وبين قوله تعالى فى القرآن : (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) التين / ١ - ٣ .

إذ يقسم الله - تعالى - بالتين والزيتون والمراد الأرض التى ينبت فيها واشتهرت به وهى الشام ، وفيها أنزل الله الإنجيل ، ويقسم بطور سيناء وهو الجبل الذى كلم الله فيه موسى ، وناداه من واديه الأيمن فى البقعة المباركة، وأقسم بالبلد الأمين وهى مكة البلد الذى أسكن إبراهيم ابنه اسماعيل وأمه فيها .

كذلك يشير إلى أن الترتيب المذكور فى التوراة ليس ترتيب أفضلية بل ترتيب زمانى ذُكر فيه الأسبق فالأسبق بحسب الظهور الزمانى . أما الترتيب القرآنى فترتيب أفضلية ذكر فيه الأعلى فالأعلى [1] .

ويمكن القول بأن قصر البشارة بالوحى فى ساعير على عيسى ليس دقيقًا ، إذ خرج فى فلسطين معظم أنبياء بنى إسرائيل ممن يذكرهم العهد

- عبدالله الترجمان / تحفة الأريب / ص ١٣٦
- رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١١٣٥)
- الألوسى / الجواب الفسيح (١ / ٢٦٩ - ٢٧٠)

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣ / ٣٠١ - ٣٠٤)
هذا وقد تابعه ابن القيم فيما ذهب إليه تماماً ، بل يمكن القول أنه قد أعاد ماذكره الإمام بنصه .
راجع : هداية الحيارى / ص ١١٢ - ١١٤ ، ١٣٨ - ١٤ .

القديم ، وكذلك ممن يذكرهم القرآن بما فيهم معاصرو المسيح كزكريا ويحيى عليهما السلام ، أيضا فإن فلسطين ليست مقصورة على نزول الإنجيل ، ففيها نزل الزبور على داود أيضا ، ومن ثمَّ فلا وجه لذلك القصر والتحديد بظهور عيسى .

د - البشارة بمبعث النبى ﷺ .

يقول الرب لموسى : " سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيخاطبهم بكل ما أمره به ، وأى رجل لم يسمع كلامى الذى يتكلم به باسمى ، فإنى أحاسبه عليه " (١) .

وهذه البشارة تنطبق على محمد ﷺ من وجوه :

أولها : أنها تصرح بأن النبى المبشر به من إخوة بنى إسرائيل ، ولم يقم من إخوة بنى إسرائيل نبى إلا محمد ﷺ (٢) .

والثانى : أن النبى المبشر به مثل موسى (٣) . ومعلوم أن مثلية محمد لموسى تتأتى من جهات عدة منها :

١ - حال أمتيهما ، إذ كانت بنو إسرائيل متبددين فى بلاد مصر ، مسخرين لملوكها ، فجمعهم موسى وصاروا أمة استطاعت من بعده بناء دولة وملك .

---

(١) التثنية (١٨ / ١٨ - ١٩) .

(٢) على بن ربن الطبرى / الدين والدولة / ص ٨٠ .

(٣) العامرى / الإعلام / ٢٠٤ .

وهكـــذا حـــال العـــرب قبـــل الإســـلام ، كـــانوا مبدديـــن متفرقيـــن فـــى قبائل متصارعة فجمعهم الإسلام وملكهم مشرق الأرض ومغاربها (١) .

٢ – شخصيهما ، فقد كان كل منهما رئيساً مطاعاً فى أتباعه ، كمـــا لقِّـــب كل منهم بعبدالله (٢) .

٣ – شريعتيهما ، إذ تشتملا على السياســـات المدنيـــة واشـــتراط الطـــهارة وقت العبادة، ووجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء وتحريم الخنزير وما قُرِّب للأوثان ، وكذلك الميتة والدم ، والأمر بإقامـــة حـــد الزنـــا ، وكذلـــك الأمر بالجهاد (٣) .

الثالث : أن مكذِّب هذا النبى يعاقب ، ولم تعـــــرف عقوبـــة لمكـــذب نبـــى بعد موسى ، مثل ماعوقب به مكذبو محمد ﷺ ، وخصوصـــا مـــن أتبـــاع موسى عليه السلام ، مثل بنى قريظة وأهل فدك وخيبر وبنى النضير (٤) .

ويموِّه اليهود والنصارى فى هذه البشارة بحملها على يوشع من قبـل اليهود وعلى عيسى من قبل النصارى .

ويبطل ذلك أمور :

١ – أن يوشع وعيسى من بنى إســرائيل أنفســـهم وليســـا مـــن إخوتـــهم . وتنص التوراة على أنه لم يقم بعد موسى نبى مثله فى بنى إسرائيل (٥) .

---

(١) السابق .

(٢) رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١٢٢٢ – ١٢٢٣) .

(٣)رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١٢٢٢ – ١٢٢٣) .

(٤) العامرى / الإعلام / ص ٢٠٥ .

(٥) التثنية (٣٤ / ١٠) .

٢ – أن كليهما لم يكن قط مثل موسى ، فيوشع :

– لم يكن نبياً [١] .

– ليست له شريعة عامة ، بل كان خاضعاً لأحكام شريعة موسى [٢]

– كان معاصراً لموسى والبشارة بنبى يقام من بعد موسى .

وكذلك المسيح [٣] :

– لم يكن مثل موسى لكونه إلهاً فىنظر أتباعه أما موسى فكان عبداً .

– فإنه صلب وقتل بزعم النصارى ليكون كفارة .

– فقد صار لعنة ولم يكن كذلك موسى .

– إذ دخل الجحيم بعد موته لإنقاذ المعذبين .

– الذى ولد من أم بلا أب ، ولم تكن له زوجة أو أولاد ، أما موسى فولد من أبوين وكان له زوجة وأولاد .

– فشريعته لا تتضمن الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارة والمحرمات من المأكولات والمشروبات ، مما تتضمنه التوراة .

– ماكان رئيساً ولا مطاعاً فى قومه مثلما كان موسى .

(١) على بن ربن الطبرى / الدين والدولة / ص ٨٠ .

(٢) ابن القيم / هداية الحيارى / ص ١١١ .

(٣) رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١١١٧ – ١١١٨) .

هـ - البشارة بصفة أمة محمد ﷺ .

وهى من قول أشعيا فى الإصحاح الثانى والأربعين : " فأنا أخبركم بالمحدثات ؛ أنشدوا للرب نشيداً جديداً ، تسبحة له من أقاصى الأرض يارواد البحروكل مافيه ويا أيتها الجزروسكانها! لترفع البرية ومدنها صوتها والحظائر التى يسكنها قيدار ، وليهتف سكان الصخرة وليصبحوا من رؤوس الجبال ، ليؤدوا المجد لله ، ويخبروا بحمده فى الجزر " (١) .

وقيدار اسم سامى معناه القدير أو الأسود ، وهو علم على الابن الثانى لإسماعيل ، وهو أب لأشهر قبائل العرب وباسمه تتسمى بلادهم فيقال أرض قيدار (٢)،لذا يتساءل ابن القيم :
فَمنْ أهل البوادى من الأمم سوى أمة محمد ، ومن قيدار غير ولد اسماعيل أحد أجداده ﷺ ؟ ومَنْ سكان الكهوف وقلل الجبال سوى العرب ؟ ومن الذى دام ذكره إلى الأبد غيره ؟ (٣)

ويشرح رحمة الله الهندى وجوه انطباق البشارة على أمة محمد ﷺ بأن التسبيحة الجديدة عبارة عن النهج الجديد المتمثل فى شريعة محمد ﷺ ، وأن قوله " من رؤوس الجبال يصيحون " إشارة إلى العبادة المخصوصة التى تؤدى فى أيام الحج حيث يصيح مئات الآلاف من الناس" لبيك اللهم لبيك" (٤)

---

(١) أشعيا (٤٢ / ٩ - ١٢) .
(٢) جون طمسن وآخرون / قاموس الكتاب المقدس / ص ٧٥١
(٣) ابن القيم / هداية الحيارى / ص ١٤٧ .
(٤) رحمة الله الهندى / إظهار الحق (٤ / ١١٥٧) .

ومعلوم أنه لم يحصل أن امتلأت الأرض برها وبحرها وجزرها بالتسبيح والحمد إلا بمبعث محمد ﷺ الذى جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، وحيث تؤدى أمته صلواتها الخمس على مدار اليوم والليلة فى جميع أنحاء المعمورة [١] .

(١) ابن تيمية / الجواب الصحيح (٣ / ٣٢٨) .

المبحـــث الـــرابـــــع

سيرته وأخلاقــه صلى الله عليه وسلم

وإنك لعلى خلق عظيم

(القلم / ٤)

تنفرد دلائل النبوة فى الإسلام بهذا المبحث ، إذ لم يســبق أن كــان الكمال الخلقى دليلا على النبوة قبل مبعث محمد ﷺ ، وهنالك أسباب تكمن خلف مشروعية الاستدلال به ، بل وضرورته ، منها :

١ - نصُّ القرآن الكريــم علــى كمــال أخلاقــه ﷺ ، فيقــول تعــالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم / ٤ ؛ وإشارته إلى أن هذا الكمال سبب فــى تأليف القلوب حول النبى ، يقول تعالى : (ولو كنــت فظــا غليــظ القلــب لانفضوا من حولك) آل عمران / ١٥٩ .

٢ - أن تكامل الأخلاق أمر معجز ، لأن الناس يطلبونه فلا يجدونـــــه فـــهو معوز لهم [١] .

٣ - أن تكامل الأخلاق موجب للصدق ، والصدق موجب لقبــول القــول ، ومعلوم أن جماع الكلام فى النبوة قائم على الخبر وقبوله ، فوجب أن يكــون من دلائل الرسل [٢] .

---

(١) الماوردى / أعلام النبوة / ص ١٥٨ .

(٢)الماوردى / أعلام النبوة / ص ١٥٨ .

٤ – فى إثبات كمال خلقه وجميل سيرته ﷺ أبلغ رد على دعوى المخالفين ومطاعنهم واتهامهم رسول الله ﷺ بمساوئ الأخلاق التى تسلبه شرف النبوة (١) .

٦ – أن ذلك الكمال الأخلاقى الذى اتصف به النبى محمد ﷺ كان دليل النبوة القاهر الذى ألزم الكثيرين الإيمان بنبوته ﷺ من قبل أن يروا خارقاً حسياً ، وهم أمثال خديجة أم المؤمنين وأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ، وغيرهم.

وتشمل مجالات الكمال الأخلاقى التى عليها المعول فى إثبات النبوئة ثلاثة مجالات (٢) :

أولها : كمال الخصال والأوصاف

فقد كان ﷺ طلق الوجه طلاقة موجبة للمحبة باعثة على المودة ، فكان حسن القبول جالباً النفوس إلى متابعته والانقياد له .

وكان راجح العقل ، صادق الفراسة ، حسن التدبير ، فلم يعجزه معضل أما عن صبره فى الشدائد والكروب ، فلم تكن المحن تزيده إلا شدة وثباتا وكان أزهد الناس فيما يُقتنى ويُدخر وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر ، لم يخلف عينا ولا حفر نهراً ولا شيد قصراً . وهو فى التواضع مضرب

---

(١) Adel Theodore Khoury, Der theologisch Streit, S : 40 - 41 .

(٢) الماوردى / أعلام النبوة / ص ١٥٧ – ١٧٣ .

– القرطبى / الإعلام / ص ٢٩١ – ٣١٤ .

الأمثال ؛ خفض للجميع جناحه يجلس على التراب ويمشي في الأسواق لا يتميز عن أصحابه إلا بإطراقه وحيائه .

ومن شرف خلقه وكريم شيمه حلمه الذى جاوز به كل حليم إذ مُني بجفوة الأعراب فلم تزده إلا رفقاً ورأفة ، فلم يغضب وينتقم إلا في حق من حقوق الله . وقد حفظ العهد ووفى بالوعد ، فلم ينقض أو يخلف عهداً أو وعداً قط .

الثانى : فضائل الأقوال

وهو معتبر بخصال عدة ، منها : ما أوتى من الحكمة البالغة وأعطي من العلوم الجمة الباهرة فأتى بما بهر العقول وأذهل الفطن من إتقان ما أبان وإحكام ما أظهر ، والخصلة الثانية قوة حفظه حتى لم يعزب عنه صغير أو كبير مما استحفظ من أمور الرسالة ، والثالثة بيانه ما شرع بأوضح تعليل وأظهر دليل ، حتى لم يخرج منه مايوجبه معقول ولا دخل فيه ما تدفعه العقول ، والرابعة حثه على الفضائل وما أمر به من محاسن الأخلاق ومستحسن الآداب ، وما نهى عنه من التباغض والتحاسد ومنكرات الأمور .

والخامسة بوضوح جوابه إذا سئل وظهور حجاجه إذا جودل ، والسادسة حفظ لسانه من تحريف القول ولحنه ، فلم يزل مشهوراً بالصدق في خبره حتى صار بالصدق مرقوماً وبالأمانة مرسوماً والسابعة إبانته عن أغراضه وحاجته أحسن البيان ، والثامنة أنه أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً وأوجزهم كلاماً وأجزلهم لفظا وأصحهم معاني .

الثالث : فضائل الأعمال

وذلك مختبر بخصال ، منها : حسن سيرته وصحة سياسته ، والثانية جمعه بين رغبة من استمال ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته وقاموا بحقوق دعوته ، والثالثة توسط شريعته بين الإفراط والتفريط ، والرابعة أخذه من الدنيا على قدر الكفاية ، والخامسة توضيحه لمعالم الدين وأحكامه وعباداته حتى لم يُحتج إلى شرع غيره ، والسادسة جمعه بين الدعوة للدين باللسان والبيان وبين الانتصاب لجهاد الأعداء حتى انتصر ، والسابعة ما اختص به من الشجاعة في الحروب وثبات القلب وسرعة النهوض إلى نجدة الملهوف والمحتاج والمفزوع ، والثامنة ماكان عليه من سخاء وجود حتى جاد بكل موجود وآثر بكل مطلوب ومحبوب

وتجدر الإشارة إلى أن الاستدلال على صدق دعوى محمد ﷺ النبوة بجميل سيرته وكمال أخلاقه ، لم يكن قاصراً على من آمن به من بين قومه من العرب ، بل إن أشهر وأقدم مايروى فى ذلك هو حوار هرقل وأسئلته التى وجهها إلى أبى سفيان ، حتى أن القرطبى قد أورد تلك المحاورة تحت عنوان " خاتمة جامعة فى صفاته وشواهد صدقه وعلاماته (١)

وهذه المحاورة مروية فى الصحيح من كتب السنة على النحو التالى :
روى البخارى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : " أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ ماداً فيها أبا سفيان وكفار

(١) القرطبى / الإعلام / ص ٣١٥ .

قريش، فأتوه بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعا بترجمانه ،فقال :

أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان فقلت : أنا أقربهم نسبا . فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فجعلوهم عن ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه فوالله لولا الحياء من أن يُؤثروا علىّ كذبا لكذبت عنه .

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلتُ : هو فينا ذونسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلتُ: لا قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلتُ : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلتُ : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلتُ : لا ، بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلتُ : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلتُ : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها

قال: ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة : قال : فهل قاتلتموه ؟ قلتُ : نعم. قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلتُ : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم . قلتُ : يقول " اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا . واتركوا ما يقول آباؤكم " ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا

القول ، فذكرتَ أن لا فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرتَ أن لا ، قلتُ : فلو كان من آبائه من ملك قلتُ رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرتَ أن لا فعرفتُ أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرتَ أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرتَ أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصدق والعفاف . فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية إلىعظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل، فقرأه ، فإذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولا اشهدوا بأنا مسلمون) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا فقلت لأصحابى حين أخرجنا : قد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة ، أنه يخاف ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام " [١] .

فهذه كانت أخلاقه ، وتلك كانت شهادات أعدائه ﷺ قبل أصدقائه حيث شهد له المشركون مجتمعين بالصدق طيلة عمره معهم ، ثم شهدوا له أفراداً شهادات سجلها التاريخ عن ألد أعدائه منهم ، وأكثرهم خصومة له أبى سفيان بن حرب وأمية بن خلف.

(١) صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى / ٦)

مصـــــادر ومراجـــع البحـــث

أولا : القرآن الكـــريــــــم

ثانيا : كتب السنة النبوية

١ - صحيح البخارى

٢ - صحيح مسلم

٣ - سنن الترمذى

٤ - سنن ابن ماجة

٥ -مسند الإمام أحمد ، طبع المكتب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٣م .

ثالثا : الكتب المقدسة فى اليهودية والمسيحية

١ - العهد الجديد (نسخة البروتستانت)

نشرة وليم واطسن - لندن ١٨٥٧م ، بتصويـــر مـــن مكتبـــة السائح . بيروت ١٩٨٣م.

٢ - العهد الجديد (نسخة الكاثوليك)

اعتماد بولس باسيم - دار المشرق - بيروت ١٩٨٩م .

٣ - العهد القديم (نسخة البروتستانت)

نشرة وليم واطسن - لندن ١٨٥٧م .

٤ - العهد القديم (نسخة الكاثوليك) اعتماد بولس باسيم

رابعا : دوائر المعارف والقواميس المتخصصة

١ - قاموس الكتاب المقدس ، باشراف :

بطرس عبدالملك وآخرون ، دار الثقافة . القاهرة ١٩٩١ .

2 - Theologische Realenenzyklopüdie, London - New york-Bonn

خامسا : المعـــــاجـــــم .

١ - ابن منظور : لسان العرب .

٢ - الفيومى : المصباح المنير .

٣ - التهانوى :كشاف اصطلاحت الفنون .ط٢ الهند ١٨٩٢م

٤ - الجوهرى : الصحاح .

سادسا : رسائل جامعية

١ - أمين أمين راشد (الدكتور)

مشكلةالسببية فى الفكر الإسلامى، دكتوراه بأصول الدين بالأزهر

٢ - جمال الحسينى أبو فرحة

المعجزة وحجيتها ، ماجستير بدار العلوم .

٣ - عبدالحميد مدكور (الدكتور)

الولاية عند ابن عربى ، رسالة دكتوراه بدار العلوم .

٤ - **عبد الراضى محمد عبد المحسن (الدكتور)**

النبوة بين اليهودية والمسيحية والإسلام، دكتوراه بدار العلوم

٥ - **عبدالفتاح الفاوى (الدكتور)**

النبوة بين الفلسفة والتصوف رسالة دكتوراه بدار العلوم .

سابعاً : المخطوطات

١ - الرد على النصارى ، لمحمد بن أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى ، مكتبة جامعة بامبرج الألمانية . تحت رقـــم : H.S - 12135 .CR

ثامنا : الدوريات

١ -عالم المعرفة، سلسلة شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة الكويت .

٢ - مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول) القاهرة .

تاسعا : مصادر ومراجـــــع أخـــــــــرى

١ - **الآلوسى البغدادى** : الجواب الفسيح لما لفقه عبدالمسيح ، بتحقيق أحمد حجازى السقا ، دار البيان . القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

٢ - **الآمدى** : غاية المرام فى علم الكلام ، بتحقيق الدكتور حسن الشافعى - طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٩٧١م .

ـ المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، بتحقيق الدكتور حسن الشافعى . القاهرة ١٩٨٣م .

٣ - **إبراهيم خليل أحمد** :محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن مكتبة الوعى . القاهرة . الطبعة الخامسة .

٤ - **إبراهيم مدكور (الدكتور)** : فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق طبع الحلبى. القاهرة ١٩٤٧م .

٥ - **ابن أبى العز الحنفى** : شرح العقيدة الطحاوية ، المكتب الإسلامى ط١ بيروت ١٣٩٢هـ .

٦ - **ابن تيمية:** النبوات.مكتبة السنة المحمدية،القاهرة.د . ت

ـ درء تعارض العقل والنقل . طبع جامعة الإمام محمد بن سعود ط١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

ـ مجموع الفتاوى، دار التقوى للنشر والتوزيع بلبيس د. ت

ـ جامع الرسائل، بتحقيقد / رشاد سالم ، طبع المدنى. القاهرة ١٩٨٤م

ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، طبع المدنى . القاهرة د.ت.

ـ الصفدية ، طبع على نفقة الملك فيصل ، الرياض ١٩٧٦

ـ معارج الوصول ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٧هـ.

٧ – **ابن الجوزى** : الوفا بأحوال المصطفى ، بتحقيق مصطفى عبد الواحد . دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٦٦ .

٨ – **ابن حزم (الظاهرى)** : الدُّرة فيما يجب اعتقاده ، بتحقيق الدكتور أحمد بن ناصر مكتبة التراث . مكة المكرمة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، مكتبة السلام العالمية القاهرة د . ت .

٩ – **ابن خلدون** : المقدمة ، طبع دار الشعب ١٩٨٦ .

١٠ – **ابن قتيبة (الدينورى)**: دلائل النبوة، بيروت ١٩٨٥م

١١ – **ابن القيم** : هداية الحيارى ، بتحقيق أحمد السقا حجازى المكتبة القيمة . القاهرة ط٢ ١٣٩٩هـ .

١٢ – **ابن كثير** : تفسير القرآن العظيم ، المكتبة التوفيقية . مصر . بدون ترقيم .

١٣ – **ابن كمونة (اليهودى)** : تنقيح الأبحاث فى الملل الثلاث ، طبع دار الأنصار . القاهرة – د . ت .

١٤ – **ابن النقيب** : مقدمة التفسير فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن بتحقيق

د. زكريا سعيد على . مكتبة الخانجى . القاهرة ١٩٩٥ م.

١٥ - **أبو العلا عفيفى(الدكتور)**:من أين استقى بن عربى فلسفته التصوفية، مجلة كلية الآداب- جامعة فؤاد الأول١٩٣٣م.

١٦ - **أبو قرّة (تيودور)** : ميمر فى وجود الخالق والدين القويم ، بتحقيق اغناطيوس ديك . بيروت ١٩٨٢م.

١٧ - **أبو نعيم الأصبهانى** : دلائل النبوة ، بيروت ١٩٨٦م

١٨ - **أحمد بن الحسين الهارونى الزيدى** : إثبات النبوة ، بتحقيق خليل أحمد فرج . القاهرة ١٩٧٩م.

١٩ - **أحمد عزت باشا (المشير)** الدين والعلم ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٢٠ - **الإيجى (عضد الدين)** : المواقف فى علم الكلام ، مكتبة المتنبى،القاهرة د.ت.

٢١ - **الباقلانى (أبو بكر)** : إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف القاهرة . الطبعة الخامسة د.ت.

٢٢ - **البيهقى (أحمد بن الحسين)** : دلائل النبوة ، دار الريان للتراث . القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٢٣ - **الجاحظ** : الرد على النصارى ، بتحقيق الدكتور محمد الشرقاوى دار الصحوة. القاهرة ١٩٨٤م .

–حجج النبوة ، بهامش الكامل للمبرد . مطبعة التقدم العلمية . القاهرة ١٣٢٣هـ .

٢٤ – **الجعفرى (أبو البقاء صالح بن الحسين)** : الرد على النصارى بتحقيق د.محمد حسانين مكتبة وهبة ١٩٨٨م.

٢٥ – **جمال الدين عطية (الدكتور)** : النظرية العامة للشريعة الإسلامية. مطبعة المدينة.الرياض ط الأولى١٤٠٧هـ– ١٩٨٨م .

٢٦ – **الجوينى (إمام الحرمين)** :الإرشاد ، بتحقيق محمد يوسف موسى ،على عبد المنعم عبد الحميد ، طبع الخانجى– القاهرة ١٩٥٠م.

– شفاء الغليل فى بيان ماوقع فى التوراة والإنجيل من التبديل بتحقيق أحمد حجازى، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩م.

٢٧– **حسن حنفى (الدكتور)** : دراسات إسلامية ،مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م.ـــ من العقيدة إلى الثورة (الجزء الرابع ـــ النبوة والمعاد) ، دار التنوير – بيروت ١٩٨٨م.

٢٨– **الخزرجى (أبو عبيدة)** : مقامع هامات الصلبان ، بتحقيق الدكتور محمد شامة. مكتبة وهبة ١٩٧٥م .

٢٩– **الرازى (فخر الدين)** : عصمة الأنبياء ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨١م.

– نهاية العقول ، بتحقيق : صلاح محمد عبدالرحمن . ماجستير بدار العلوم .

٣٠– **رحمة الله الهندى** : إظهار الحق ، بتحقيق د/ محمد ملكاوى . الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة السعودية ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

٣١ – **روبرت م . أغروس جورج ن . ستانسيو** :

العلم فى منظوره الجديد ، سلسلة عالم المعرفة (١٣٤) .

٣٢ – **رودى بارت** : الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ، بترجمة الدكتور مصطفى ماهر . القاهرة ١٩٦٧م .

٣٣ – **سعد الدين صالح (الدكتور)** : المعجزة والإعجاز فى القرآن الكريم، دار المعارف ١٩٩٣م.

٣٤ – **سعيد بن حسن الإسكندرى** : مسالك النظر ، بتحقيق الدكتور محمد الشرقاوى . مكتبة الزهراء ، القاهرة ١٩٨٨م .

٣٥– **السموأل (ابن يحيى)** :إفحام اليهود ، بتحقيق الدكتور محمد الشرقاوى . دار الهداية ١٤٠٦هـ .

٣٦ – **سيد قطب** : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ط١١ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٣٧ – **السيوطى** : الإتــقان فى علوم القرآن ، بتحقيق محمد أبو الفضل دار التراث . القاهرة . د.ت .

٣٨ – **الشاطبى** : الموافقات فى أصول الأحكام . بتعليق الشيخ محمد حسنين مخلوف– دار الفكر . مصر . د.ت

٣٩ – **الشهرستانى** : الملل والنحل ، بتحقيق عبدالعزيز الوكيل . طبع الحلبى . د.ت .

– نهاية الأقدام ، بتصحيح الفرر جيوم . طبع مكتبة زهران . القاهرة د . ت .

٤٠ – **الصابونى (محمد على)** : النبوة والأنبياء ، مكتبة الغزالى ، دمشق ، ١٩٨٥م.

٤١ – **صديقى (عبدالحميد)** : النبوة فى الإسلام ، بترجمة كاظم جوادى، دار القلم ، الكويت ١٩٨٩م .

٤٢ – **العامرى (الفيلسوف)** : الإعلام بمناقب الإسلام ، بتحقيق الدكتور عبدالحميد غراب ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م.

٤٣ – **عبدالأحد داود** : محمد فى الكتاب المقدس ، ترجمة فهمى شما ، طبع رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ١٩٨٥م .

٤٤ – **عبدالجبار (القاضى)** : شرح الأصول لخمسة

بتحقيق د/ عبدالكريم عثمان .مكتبة وهبة.القاهرة ١٩٨٨م

– تثبيت دلائل النبوة . بتحقيق د. عبدالكريم عثمان ، دار العروبة بيروت ١٩٦٦م.

– المغنى (الجزء الخامس عشر) تحقيق الدكتورمحمود الخضيرى – الدكتور محمود قاسم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ١٩٦٥م

– المغنى (الجزء السادس عشر) تحقيق أمين الخولى . وزارة الثقافة بمصر . ١٣٨٠ – ١٩٦٠ .

٤٥– **عبدالراضى محمد عبدالمحسن (الدكتور)** : منهج أهل السنة والجماعة فى الرد على النصارى ، دار الفاروق الحديثة – الطبعة الثانية ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

٤٦ – **عبد اللطيف العبد (الدكتور)** : أصول الفكر الفلسفى عند أبى بكر الرازى.مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧ م

٤٧ – **عبدالمتعال الصعيدى** : لماذا أنا مسلم ، مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٨٥م .

٤٨ – **عبدالمجيد الشرفى (الدكتور)** : الفكر الإسلامى فى الرد على النصارى ، كلية الآداب – تونس ١٩٨٦م .

٤٩ – **عبدالله الترجمان** : تحفة الأريب ، بتحقيق د . محمد حماية – دار المعارف ١٩٨٤م.

٥٠ - **عبدالملك على الكليب**:علامات النبوة.الرياض ١٩٨٥م

٥١ - **العقاد (محمود عباس)** : التفكير فريضة إسلامية ، دار الهلال، د.ت .

٥٢ - **على بن ربن الطبرى** : الدين والدولة فى إثبات نبوة محمد ﷺ، المكتبة العتيقة ، تونس د.ت .

٥٣ - **الغامدى (أحمد بن سعد بن حمدان)**:عقيدة ختم النبوة المحمدية دار طيبة . الرياض ط الأولى (١٤٠٥-١٩٨٥) .

٥٤ - **الغزالى (أبو حامد)** : الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل ، بتحقيق الدكتور محمد الشرقاوى.دار الهداية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- جواهر القرآن ، المكتبة الأزهرية د.ت

٥٥ - **الفارابى** : آراء أهل المدينة الفاضلة ، بتحقيق ألبير نصرى نادر ، بيروت ١٩٥٩م .

٥٦ - **القرطبى** : الجامع لأحكام القرآن ، طبع دار الريان للتراث . القاهرة د . ت .

- الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، بتحقيق أحمد السقا حجازى ، دار التراث العربى .القاهرة د.ت.

٥٧ - **كارل ساغان** : الكون ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٨) .

٥٨ - **الماوردى** : أعلام النبوة ، دار الفرجانى (القاهرة طرابلس . لندن) ١٩٨٥م.

٥٩ - **مايكل هارت** : كتاب المائة ، ترجمة أنيس منصور ، طبع دار المعارف١٩٨٥م.

٦٠ - **محمد أحمد الغمراوى** : الإسلام فى عصر العلم ، دار الإنسان القاهرة١٩٨٩م.

٦١ - **محمد جمال الفندى (الدكتور)** : الله والكون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .

٦٢ - **محمد حسين الصغير** : المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع (ط٢) بيروت ١٩٨٦م

٦٣ - **محمد السيد الجليند (الدكتور)** : تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين ، مكتبة الزهراء ١٩٩٠م .

٦٤ - **محمد عبدالعظيم الزرقانى** : مناهل العرفان فى علوم القرآن ، طبع الحلبى . القاهرة (ط٣) د.ت

٦٥ - **محمد عبدالله دراز** : النبأ العظيم ، دار القلم . الكويت ط ٤ ١٩٧٧م .

- مدخل إلى القرآن الكريم ، دار القلم .الكويت ١٩٥٨م.

٦٦ – **محمد عبدالله الشرقاوى (الدكتور)** : الإيمان ، مكتبة الزهراء ١٩٨٩م

– القرآن والكون . مكتبة الزهراء – القاهرة د . ت .

٦٧ – **محمد عبده** :رسالة التوحيد، مكتبة القاهرة بالأزهر – د.ت

٦٨ – **محمود رزق ماضى (الدكتور)** : نبوة محمد ﷺ، دار الدعوة . الأسكندرية ١٩٨٥م.

٦٩ – **مصطفى صبرى** :القول الفصل، مكتبة النور،القاهرة ١٩٨٦م.

٧٠ – **مصطفى حلمى (الدكتور)** : مناهج البحث فى العلوم الإسلامية ، مكتبة الزهراء ١٩٩٠م.

٧١ – **المكى (ابن أحمد)** : مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، مطبعة دائرة المعارف النظامية– الهند ، (ط١) – ١٣٢١هـ .

٧٢ – **منصور حسب الله (الدكتور)** : القرآن الكريم والعلم الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م .

٧٣ – **موريس بوكاى** : القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ، دار المعارف.القاهرة د.ت.

– ما أصل الإنسان ؟ نشر مكتب التربية العربى لدول الخليج د . ت .

٧٤ – **نجم الدين البغدادى الطوفى** : الانتصارات الإسلامية فى كشف شبه النصرانية ، دار البيان مصر ١٩٨٣م .

٧٥ – **نصر بن يحيى المتطبب** : النصيحة الإيمانية فى فضيحة الملة النصرانية ،
بتحقيق الدكتور محمد عبدالله الشرقاوى ، دار الصحوة .
(ط١) ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٧٦ – **همام عبدالرحيم سعيد (الدكتور)** : الفكر المنهجى عند المحدثين ، كتاب الأمة (١٦) قطر ١٤٠٨هـ .

٧ –**وحيد الدين خان**:الإسلام يتحدى،طبع بيروت. ١٩٧٠م

عاشرًا : مراجع باللغة الألمانية

1 - Carsten Colpe , Das Siegel der Propheten .

2 - Klaus Hock , Der Islam im Spiegel westlicherTheologie.

3 - Adel Theodore Khoury , Der theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam .

4- E.Lohse , die Texte aus Qumran

5 - Karl Heussi , Kompendium der irchengeschichte.

6 - Ninian Smart , Die grossen Religionen .

7 - Graf , G ., Geschichte der christlichen arabischen Literatur .

8- M.Zobel , Gottes Gesalbter.

9- Josephus , Juedische Altertuemer .

10- Gershon Scholem , Sabbatai Zwi.

11- Katechismus der Katholischen kirche.

12- W. Bacher , Mosesben Maimoni: sein leben, seine Werke und sein Einflus

فهرس المحتويات

الفصل الثانى (دعاوى حول نبوة محمد ﷺ)

٧١ - ١١٦

الفصل الثالث (دلائل النبوة)

١١٧ - ٢١٨

المؤلف فى سطور

الدكتور عبد الراضى محمد عبد المحسن

- تخرج فى كلية دار العلوم بجامعه القاهرة ١٩٨٣ م
- عُين معيدًا بالكلية ١٩٨٣ م
- ماجستير فى الفلسفة الإسلامية بتقدير ممتاز عام ١٩٩٠ م
- دكتوراه الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان من جامعتي : القـــاهرة و بامبرج **Bamberg** الألمانية بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٩٦.
- مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العـــلوم جامعة القاهرة
- معار للعمل بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، بوظيفة أستاذ مساعد بكلية أصول الدين بالرياض .

*** مؤلفات علمية :-**

١ - التطرف اليهودي مكتبة التوعية الإسلامية - الهرم ١٩٩٢ م.

٢ - منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى مطبعة الفاروق الحديثة - القاهرة ط الثانية ١٩٩٦ م

٣ ـ الأخلاق بين النظرية والتطبيق- بالاشتراك مع الدكتور حامد طاهر - دار الثقافة العربية ـ القاهرة ١٩٩٦ م

٤ - أنبياء اليهود فى التوراة والتلمود (قيد الطبع)

٥ - حقيقة المسيح بين النبوة والأساطير (قيد الطبع)

٦- **(under press) The prophet of Islam**

*** تحقيق ودراسة**

١ - نزهة الحفاظ للحافظ أبى موسى المدينى (تحقيق) مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٩٨٦ م .

هذا الكتاب

بات محمد ﷺ هدفًا لمطاعن خصوم الإسلام وجنودهم من جحافل المبشرين والمستشرقين الذين راحوا يثيرون الغبار والشبهات والمزاعم حول نبى الإسلام ورسالته .

لذلك أضحت هذه الدراسة ضرورة علميـــة ودينيـــة تقتضيـــها الحاجة الملحة إلى تقديم إسلام ثابت الأسس والدعـــائم كبديـــل نـــهائى ووحيد جدير بقناعة إنسان الحضارة المعاصر .

وتشكل الرؤية المتكاملة والمتعددة الجوانب فى معالجـــة هـــذا الموضوع قيمة خاصة ، فعلى المستوى الأول تتصدى الدراسة لدحض الافتراءات والأباطيل المروجة عن الرسول ، وعلى المستوى الثـــانى تبين حقيقة نبوة محمد ﷺ ووجوه تفردها ، أمـــا المســـتوى الثـــالث فيكشف عن الدلائل العلمية اليقينية الكفيلة بإثبات صحة رسالته ﷺ .

فإذا أضيف إلى ذلك الدقـــة العلميـــة والمنهجيـــة المدعومـــة بتخصص صاحب البحث فى مجال الأديان ومعرفته الجيدة بفكر الغرب وثقافته ، تأكد لنا عموم النفع وتمام الفائدة المرجـــوة مـــن وراء هـــذا الكتاب .

الناشر